شواهد التفسير عند ابن عباس في مسائل ابن الأزرق

للدكتور أحمد الخياطي

الشواهد بين التعريف والتوظيف

معنى الشواهد لغة واصطلاحا :

الشواهد، في اللغة، جمع شاهد، وأصل مادة (شهد) كما يقول ابن فارس رحمه الله لها أصل واحد يدل على ثلاثة أمور، وهي : الحضور، والعلم، والإعلام، قال : «(شهد) الشين والهاء والدال أصل يدل على حضور، وعلم، وإعلام، لا يخرج شيء من فروعه عن الذي ذكرناه، من ذلك الشهادة، يجمع الأصول التي ذكرناها من الحضور، والعلم، والإعلام ...»(1).

وكتب اللغة تذكر في مادة (شهد) ألفاظا كثيرة، ولكنها تؤول إلى ما قرّره ابن فارس، ومنها : «الشهيد»، من أسماء الله : الأمين في شهادته. والشهيد : الذي لا يغيب عن علمه شيء. والشهيد : الحاضر. والشاهد : العالم الذي يبيّن علمه. ورجل شاهد، والجمع أشهاد وشهود. وشهيد، والجمع شهداء. واستشهده : سأله الشهادة. والشهادة : خبر قاطع والتشهد قراءة التحيات لله ... وشهد الشاهد عند الحاكم أي بيّن ما يعلمه وأظهره، يدل على ذلك قوله تعالى ﴿شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾(2).

(1) معجم مقاييس اللغة (شهد).

(2) سورة التوبة : 17.

وقال أحمد بن يحيى ثعلب : كل ما كان «شهد الله» فإنه بمعنى علم الله[3]. وشهد فلان على فلان بحق، فهو شاهد وشهيد. واستشهد فلان، فهو شهيد. والمشاهدة : المعاينة، وشهده شهودا أي حضره، فهو شاهد. وقوم شهود أي حضور ... وشُهَّد أيضا مثل راكع وركّع .. والشهيد : الشاهد، والجمع : الشهداء .. واستشهدت فلانا على فلان إذا سألته إقامة شهادة احتملها .. والشاهد والشهيد : الحاضر والجمع شهداء وشُهَّد وأشهاد وشُهود..

«وقوله تعالى : ﴿وذلك يوم مشهود﴾[4] أي محضور يحضره أهل السماء والأرض. ومثله : ﴿إن قرآن الفجر كان مشهودا﴾[5] ؛ يعني صلاة الفجر يحضرها ملائكة الليل وملائكة النهار»[6]. غير أنى لاحظت أن المعاجم لا تذكر «الشاهد» بمعنى البيت الشعري الذي يستشهد به، أو تنص على أن بعض الآيات تعد شاهداً للأخرى، أو أن بعض الأحاديث النبوية التي فيها كلام قد تجبر بالمتابعات والشواهد ..

كل هذا – فيما رأيت – لا تعرفه المعاجم، وبتعبير آخر لا تنص عليه، كقضية لها اسمها الخاص، وهو ليس بحديث العهد، ولكنه أصبح بعد صدر الإسلام إسما ذائعا مشهورا عند كثير من علماء كل فن من الفنون ؛ فيقال : شواهد التفسير، وشواهد الحديث، وشواهد اللغة، وشواهد النحو، وشواهد البلاغة .. وغيرها.

أما في صدر الإسلام، فقد كان التعبير عن هذا الموضوع بلفظ «المصادق» بدل «الشاهد» وقصة نشأة (مسائل ابن الأزرق) ليست ببعيدة عنا، والتي قال في بدايتها نافع بن الازرق ونجدة بن عامر

(3) اللسان (شهد).
(4) هود : 103.
(5) الإسراء : 78.
(6) اللسان (شهد).

الحنفي لابن عباس جئنا لنسألك عن أشياء في القران على أن تاتينا «بمصادِقه»، وفي رواية «بمصادقة»، وفي ثالثة «بمصداقه» من كلام العرب. وهناك نماذج ووقائع أخرى مماثلة لهذا الذي أوردته.

نعم قد يكون إغفال المعاجم التنصيص على «شواهد» بمعناها الخاص، اتكالا منها على تعريفها «الشاهد» : الإنسان الذي يشهد بصحة الشيء أو ضده، وحملت ذاك على هذا، ولكن هذا المنحى لا يستقيم فالشاهد الذي يشهد لنا، أو علينا يجمع على «شهود»، و«أشهاد»، و«شهداء»، أما «الشاهد» الذي يعنينا -هنا- فيجمع على «شواهد» على وزن «فواعل» الذي يطرد في ثمانية أوزان، منها، وهو الخامس :

«فاعل» بكسر العين صفة لمذكر غير عاقل، كصاهل وصواهل، وشامخ وشوامخ، وشاهق وشواهق، وناهق ونواهق[7] أقول : وشاهد وشواهد ..

أما الشواهد الشعرية في اصطلاح أهل الفنون، فهي الأبيات الشعرية التي يستدل بها على المعاني اللغوية، أو القواعد النحوية، أو البلاغية، أو غير ذلك.

ويظهر أن مفهوم الشاهد لم يكن واضحا جليا في أذهان كثير من الناس إلى عصر الحجاج بن يوسف الثقفي ؛ فقد جرى بينه وبين سميرة بن الجعد حوار جاء فيه : قال الحجاج : يا سميرة، هل تروي الشعر ؟ قال : إني لأروي المثل والشاهد، قال الحجاج : المثل قد عرفناهُ، فما الشاهد ؟ قال : اليوم يكون للعرب من أيامها عليه شاهد من الشعر، فإني أروي ذلك الشاهد»[8].

---

(7) انظر الفيصل في ألوان الجموع 75.

(8) مروج الذهب 136/3.

مجالات الاستشهاد بالشواهد

وقد كان ميدان القرآن، وميدان النحو من أسبق وأبرز الميادين لاستعمال تلك الشواهد ؛ يقول العلامة مصطفى صادق الرافعي، في صدد كلامه عن شعر الشواهد : «وهو النوع الذي يدخل فيه أكثر الموضوع، لحاجة العلماء إلى الشواهد في تفسير الغريب ومسائل النحو ..

وشعر الشواهد في اصطلاح الرواة على ضربين : شواهد القرآن، وشواهد النحو ؛ أما الأولى فكثيرة، وقد تقدم ما رووه من حفظ ابن الأنبارى فيها[9]، ولا يبالي الرواة في هذه الشواهد إلا باللفظ، فيستشهدون بكثير من كلام سفهاء العرب وأجلافهم، ولا يأنفون أن يَعُدُّوا من ذلك أشعارهم التي فيها ذكر الخنى والفحش ؛ لأنهم يريدون منها الألفاظ وهي حروف طاهرة ...

«وأما شواهد النحو فأوسعُ الناس حفظاً لها فيما وقفنا عليه : خلف الأحمر النحوي المتوفى سنة 207 هـ .. قال ثعلب : إنه كان يحفظ أربعين ألف بيت شاهد في النحو سوى ما كان يحفظ من القصائد وأبيات الغريب ؛ وأبو مسحل الأعرابي الذي روى عن عليّ بن المبارك أربعين ألف بيت شاهد على النحو»[10]. والاستشهاد بالشعر شمل عدة مجالات، من أهمها : التفسير، واللغة، والنحو، ويمكن عرضها بتبسيط فيما يلي مع مجالات أخرى متنوعة :

أولا : مجال القراءات ؛ فقد استشهد لقراءة أبي جعفر ﴿لإلف قريش﴾[11] من ألِفَ يألفُ إلفاً بشعر مساور بن هند العبسي[12] يهجو بني أسد، والبيت الأول من هذين البيتين قد جمع القراءتين :

(9) انظر (الحثّ على حفظ العلم) صفحة 58.

(10) انظر تاريخ آداب العرب 368/1، 369.

(11) سورة قريش : 1.

(12) شاعر شريف، فارس، مخضرم إسلامي، وهو من المتقدمين في الإسلام، ورث الشرف والفروسية والشعر عن أبيه وجده، من المعمرين (الخزانة 573/4-574).

زعمتم أن إخوتكم قريش لهم إلفٌ، وليس لكم إلافُ
أولئك أومنوا جوعا وخوفا وقد جاعوا بنو أسدٍ وخافوا[13]

كما استُشهد لقراءة الأعمش ويحيى بن وثاب في (مُصْرِخيِّ)[14]حيث خفضا الياء، وذلك ببيت، قالوا عنه إنه مجهول، وقال أبو شامة : ليس بمجهول، ورآه في أول ديوان العجلي، وهو :

قال لها : هل لك يا تافيِّ قالت له : ما أنت بالمرضيِّ

وضعّف بعضهم هذه القراءة، ونسبها أبو عبيد للغلط، وقال الزجاج : رديئة مرذولة عند جميع النحويين. ولكن القشيري يقول في تفسيره : «ماثبت بالتواتر عن النبي ﷺ فلا يجوز أن يقال : هو خطأ، أو قبيح، أو رديء، بل في القرآن فصيح، وفيه ما هو أفصح..»[15]. واستشهد أيضا بشعر تبع الحميري على قراءة «حمئة»، وكان ابن عباس يقرأها كذلك، وتنازع مع معاوية وعمرو بن العاص، (وقيل عبد الله بن عمرو بن العاص) حيث وجدهما ابن عباس يقرآن «حامية» فاختلف معهما، فطلب معاوية وابن العاص شاهدا من كلام العرب على قراءته، فلقي ابن عباس نافع بن الأزرق وسأله فأنشده بيت تّبع، وكان نافع يحفظ شعر تبع. والبيت في شعر لتبع يذكر ذا القرنين وكلفه بالعلم ورحلاته من أجله، وهو :

فرأى مغيب الشمس عند غروبها في عين ذى خلب وثأط حرمد[16]..

ثانيا : مجال التفسير، ولا يحتاج إلى تفصيل القول ؛ فابتداء

(13) خزانة الأدب 574/4.

(14) الكلمة من آية سورة إبراهيم : 22.

(15) إبراز المعاني من حرز الأماني 550-551..

(16) انظر (فضائل القرآن) لأبي عبيد، بدراستي وتحقيقي، التيجان 111-114، الكشاف 744/2، فتح القدير 310/3، إبراز المعاني 575، القرطبي 49/11، غريب القرآن، لابن قتيبة 270، إعراب ثلاثين سورة 164.

من ابن عباس إلى الآن والمفسرون يستشهدون بالشواهد المختلفة على تفسير القرآن، كل منهم على حسب ما يذهب إليه، ويكاد يشترك الجميع في الاستشهاد على اللغة، والأخبار والمعاني ...

وقد استند المفسرون في ذلك إلى أقوال الصحابة والتابعين، ومن بعدهم، وكمثال على ذلك نورد هنا ما قاله سعيد بن المسيب :

«بينما عمر بن الخطاب (ض) على المنبر قال : يا أيها الناس، ما تقولون في قول الله عز وجل ﴿أو ياخذهم على تخوف﴾؟[17] فسكت الناس، فقال شيخ من بني هذيل : هي لغتنا يا أمير المومنين، التخوف : التنقُّص، فخرج رجل فقال : يا فلان، ما فعل دَيْنك ؟ قال تخوُّفته، أي تنقصته، فرجع، فأخبر عمر فقال عمر : أتعرف العرب ذلك في أشعارهم ؟ قال : نعم، قال شاعرنا أبو كبير الهذلي يصف ناقة تنقص السير سنامها بعد تمْكه واكتنازه :

تخوف الرحل منها تامكا قردا كما تخوّف عود النبعة السَّفنُ

«فقال عمر : يا أيها الناس، عليكم بديوانكم شعر الجاهلية إن فيه تفسير كتابكم ومعنى كلامكم»[18].

وفي رواية أخرى أن عمر (ض) خفي عليه معنى (تخوُّف)، وأراد أن يكتب إلى الأمصار يسأل عن ذلك حتى سمع هذا البيت. وقد كان دائما يؤكد على دور الشعر في تفسير القرآن[19].

وقد عقد فصلا أحمد بن حمدان الرازي في كتابه (الزينة في

---

(17) النحل، آية 47.

(18) القرطبي 110/10-111.

(19) المحرر الوجيز 190/10، التيسير، للكافيجي 195-196، زهر الأفنان 272/2، فتح الباري 292/8 الميسر والقداح وهامشه، صفحة 60، البيضاوي 99/3، المخصص 277/4، روح المعاني 152/14، التبيان 386/6، مشاهد الإنصاف 130،الكشاف 608/2-609، نظم الدرر 170/11-171، الطبري 77/14، معاني القرآن للزجاج 201/3.

الكلمات الإسلامية العربية) للاحتجاج بالشعر في التفسير تحت عنوان (الاحتجاج بالشعر في تفسير القرآن)[20].

ثالثا : مجال الاستشهاد على غريب الحديث وتفسيره ؛ فقد اعتبر الشعر المادة الخام التي يتحتم الرجوع إليها في شرح ألفاظ غريب الحديث، وبيان المراد منها، كلما مست الحاجة إلى ذلك، وقد تفطن إلى هذا كثير من العلماء وألحوا على استغلال الجانب الشعري في تجلية ألفاظ الأحاديث النبوية، كما يحكى عن سفيان بن عيينة أنه كان يجالس محمد بن مناذر فيسأله سفيان عن غريب الحديث ومعانيه[21].

واهتمام العلماء بهذه الأشعار قد أعطى قوة وتثبيتا لمكانة الشعر ودوره، وحبّب لطلاب العلم حفظ الأشعار، وتدوينها والاهتمام بها، ولهذا لم يبطل الشعر[22].

ويمكننا إدراك ذلك عمليا بإطلالة سريعة على أي كتاب من كتب غريب الحديث، وما تزخر به أجزاؤها وصفحاتها من الأبيات الشعرية، على اختلاف الأعصر الأدبية، وخاصة منها العصر الجاهلي، وعصر الخضرمة، والعصر الإسلامي، كما عند أبي عبيد الذي يعد أول من شرح غريب الحديث في الأمة الإسلامية[23]، وابن قتيبة[24]، وابن الجوزي[25]، والزمخشري[26]، وابن الأثير[27]، وغيرهم كثير.

---

(20) انظر ج 1/125-128.

(21) الشعر والشعراء 747/2. وانظر خاتمة شرح التبريزي على الحماسة 187/4، جمهرة أشعار العرب 1/1.

(22) الزينة 116/1.

(23) انظر كتابه (غريب الحديث).

(24) كتابه (غريب الحديث).

(25) كتابه (غريب الحديث).

(26) الفائق في غريب الحديث والأثر.

(27) النهاية في غريب الحديث والأثر.

رابعا : مجال التاريخ والسير والأنساب ؛ فكم من أحداث تاريخية ووقائع، وتصحيح أنساب قد اعتمدت على الشاهد الشعري كأوثق حجة لإثبات الحدث أو نفيه، أو لضبط زمانه، أو مكانه، فهذا الشعبي يسأل ابن عباس (ض) عن أول الناس إسلاما، فيجيبه ابن عباس : أو ما سمعت قول حسان بن ثابت ؟

إذا تذكرت شجوا من أخي ثقة ... فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خير البرية أتقاها وأعدلها ... بعد النبي، وأوفاها بما حملا
الثاني التالي المحمود مشهدهُ ... وأول الناس منهم صدّق الرُّسلا[28].

كما أخذ من أبيات صرمة بن قيس الأنصاري تاريخ ومدة إقامة النبي ﷺ بمكة بعد بعثته، وهي التي يقول في أولها :

ثَوى في قريش بضع عشرة حجة ... يذكّر لو يلقى صديقا مواتيا[29]..

خامسا : مجال اللغة. واعتمد اللغويون، وأصحاب المعاجم اللغوية على الشواهد الشعرية، يوثقون بها أقوالهم في اللغة ، وقد جمعوا بين الشعر الجاهلي والمخضرم، والإسلامي، وحتى المولّد عند بعضهم، وهم في حالة جمع المادة الشعرية لا ينظرون إلى معاني الشعر، بقدر نظرتهم إلى المادة اللغوية، فلذلك يختلف الغرض الشعري من بيت لآخر، ولا يفاضلون في عمليتهم بين المعاني الشريفة، والمعاني المرذولة ...

وكان بعض الشعراء أكثر حظاً في الاستشهاد بشعرهم من غيرهم، حتى قالوا في شأن الفرزدق –مثلا– : «لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب».

ونجد البحر الزاخر من الشواهد الشعرية، ونحن نتصفح أي معجم من معاجم العربية، سواء تعلق الأمر بمعاجم الألفاظ،

(28) محاضرات الأدباء 474/4، القرطبي 236/8، تاريخ الطبرى ج 214/2، الاستيعاب 244/2.
(29) الاستبصار 28-29، 64، الأسد 400/2، 401، الاستيعاب 21/1، 203/2، الإصابة 283/2.

وما أكثرها كالقاموس، والتهذيب للأزهري، والصحاح للجوهري، وتاج العروس، وأساس البلاغة للزمخشري، ولسان العرب لابن منظور، ومعجم مقاييس اللغة والمجمل وكلاهما لابن فارس، والجمهرة لابن دريد، وكان يتهم بالوضع والزيادة في اللغة ... أو تعلق الأمر بمعاجم المعاني، وما أقلها كالمصنف الغريب لأبي عبيد، والمخصص لابن سيدة (وقد سد -حقا- ثغرة كبيرة في هذا الجانب)، وفقه اللغة للثعالبى ...

سادسا : **ميدان التمثل بالأشعار**، وهو باب واسع، وهي الأشعار التي قالها أصحابها، واستحسنها الناس، وارتضاها النقاد؛ فحُببت إلى القلوب والعقول، وحُفظت كأغلى ما يمكن الاحتفاظ به من الأعلاق النفيسة، ومن ثم حسن التمثل بها في المواقف المماثلة لنشأتها، وفيها ما فيها من راحة النفس، وشفاء الغليل، ومتعة الذوق الأدبي الرفيع.

وفي طليعة من تمثل بالأشعار النبي ﷺ، وبعض أزواجه، وآل بيته، والخلفاء الراشدون، وكثير من الصحابة والتابعين، واستمر ذلك عند علماء الأمة الإسلامية في كل عصر ومصر. ولا بأس من سوق نماذج يسيرة من ذلك، تقريرا للمسألة، وتوكيدا للحجة.

فقد ثبت أن النبي ﷺ تمثل ببيت طرفة : (ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا * . .)[30]. وتمثل النبي ﷺ ببيت لعبد الله بن رواحة : (هذا الحمال لا حمال خيبر * ..)[31].

وتمثل بشعر الأعشى الحرمازي، واسمه عبد الله بن الأعور، الذي اشتكى للنبي ﷺ من زوجه الناشز بجملة أبيات، أولها :

(30) الشذرة في الأحاديث المشتهرة 325/1-326. وكذلك في (الزينة 98/1-100) وقلب القافية وانظر معجم الشعراء 6.

(31) المواهب اللدنية 425/1-426.

يا سيّد الناس وديّان العرب أشكو إليك ذربةً من الذرب

إلى أن قال في عجز البيت الرابع : (وهن شر غالب لمن غلب *) فجعل ﷺ يكرره[32].

وتمثل ببيت قاله الوليد بن الوليد بن المغيرة أخو خالد بن الوليد، ويقال هو لعبد الله بن رواحة، وذلك عندما ركب النبي ﷺ إلى الغار فدميت أصبعه، والبيت هو :

هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت [33]

وتمثل بشعر عامر بن الأكوع (ض) ؛ فقد كان النبي ﷺ يوم الخندق ينقل التراب حتى أغمر بطنه، أو اغبَّر بطنه، وهو يقول :

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدّقنا ولا صلّينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا

فجعل ﷺ يرفع بها صوته، ويقول : أبينا، أبينا[34].

وتمثل ﷺ ببيت لأمية بن أبي الصلت، وقد أخذه أبو خراش الهذلي (ض)، وضم إليه بيتا آخر فكان يقولهما وهو يسعى بين الصفا والمروة. وبيت أمية هو :

إن تغفر اللهم تغفر جمّا وأي عبد لك لا ألمّا [35]

---

(32) الأسد 6/266-267، الاستيعاب 124/1 وغيرهما من كتب السيرة والحديث، المقاصد النحوية 289/2.

(33) انظر الإصابة 41/1، البخاري، بالفتح 14/6، الإصابة 640/3، 7/4، الاستيعاب 16/4، الأسد 98/1، 349/5 المواهب اللدنية 389/1، 253/4 حسن الصحابة 172/1، عيون الأثر 174/1، جمهرة اللغة 303/2 (دمى)، مشاهد الإنصاف 20.

(34) البخاري، بالفتح 7/308-309، المقاصد النحوية 451/4.

(35) الخزانة 359/1 وانظر 358 في تحقيق نسبة البيت.

ويجوز للنبي ﷺ إنشاد الشعر والتمثل به - على ما حققه المحققون - لا إنشاؤه[36].

وقد كانت عائشة (ض) زوج النبي ﷺ من أحفظ الناس للشعر وفهمه، ونقده، وروايته والتمثل به ؛ فقد روي أنها كانت تحفظ اثني عشرألف بيت من الشعر[37]، وتمثلت رضي الله عنها بأشعار كثيرة، منها أنها وقفت على قبر أخيها عبد الرحمن، وتمثلت ببيت متمّم بن نويرة في أخيه مالك بن نويرة، وهو :

وكنا كندمانيْ جذيمة حقبـة   من الدهر حتى قيل لن يتصدّعا[38].

وعندما بلغ عائشة (ض) خبر مقتل علي كرم الله وجهه تمثلت ببيت مُعَقِّر بن حِمَار البارقي :

فألقت عصاها واستقر بها النوى   كما قر عينا بالإياب المسافر[39].

وتمثل الحسن بن علي (ض) ببيت شعر، قال علي بن زيد : ما سمعته متمثلا بغيره، وهو :

الموت باب وكل الناس داخله   فليت شعري بعد الباب ما الدار[40].

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يتمثل دائما ببيت لحنظلة بن سيار، وهو من جملة أبيات :

كـل امرئ مصبّـح فـي أهلـه   والموت أدنى من شراك نعلـه[41].

(36) انظر (الفاضل)، للمبرد 4،7، 9، 10، الخزانة 359/1.

(37) زهر الأفنان 232/2.

(38) حسن الصحابة 115/1، وانظر سرح العيون 80، وانظر (العقد) 70/6، 392.

(39) عيون الأخبار 259/2، الأغاني 346/8، 123/15، الكامل، لابن الأثير 198/3، تاريخ الطبري 87/6، معجم الشعراء، المرزباني 9.

(40) الأغاني 305/21.

(41) المواهب اللدنية، بشرح الزرقاني 418/1، وانظر 462، 495.

وهذا عمر بن الخطاب (ض) كان لا يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر[42]، وكان يقارن بين حياته في الجاهلية، وحياته في الإسلام، ويتمثل بخمسة أبيات، أولها :

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته يبقى الإله ويودى المال والولد[43].

وقيل لابن عباس : أتقول الرفث وأنت محرم ؟ قال : الرفث ما كان عند النساء، وتمثل قائلا :

وهن يمشين بنا هميسا إن تصدق الطير ننك لميسا[44].

وتمثل في عماه بشعر حسان بن ثابت – ويقال هو له – :

إن ياخذ الله من عينيّ نورهما ففي لساني وقلبي منهما نور
قلبي ذكي وعقلي غير ذي دخل وفي فمي صارم كالسيف مأثور

وتمثل عمر عبد العزيز (ض) بشعر أبي الصلت الثقفي، في خبر مشهور :

تلك المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعدُ أبوالا[45].

سابعا : ميدان التشكي بالأشعار، وهو باب مطروق عند الشعراء ؛ من ذلك شعر الأعشى الحرمازي – المذكور سابقا – الذي اشتكى بزوجه الناشز للنبي ﷺ، وتمثل الرسول ﷺ بآخر الشعر (وهن شر غالب لمن غلب).

ومن ذلك شعر شيخ من الصحابة جاء يشكو إلى النبي ﷺ عقوق ابنه، فأنصفه رسول الله ﷺ، والشعر سبعة أبيات من أجود

(42) مصطلح الحديث وأثره على الدرس اللغوي 99.
(43) الاستيعاب 472/2-473.
(44) الخبر مذكور في كثير من كتب التفسير، انظر مثلا (الدر المنثور 219/1) والبيت في (معاني الفراء 192/2).
(45) انظر (الروض الأنف 176/3) مثلا.

الشعر يصلح لتربية الصغار، وإصلاح المراهقين، أسوق منها هنا : الأول، والخامس، والسادس، والسابع، هكذا :

غذوتك مولودا وعلتك يا فعا ... تعل بما أحنو عليك وتنهل
فلما بلغت السن والغاية التي ... إليها مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائي غلظة وفظاظة ... كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتي ... فعلت كما الجار المجاور يفعل[46].

وشكت قتيلة بنت النضر بن الحارث للنبي ﷺ، حتى بكى ورق لحالها، وقال : لو سمعت شعرها ما قتلت أباها[47].

وقد جاء في شعرها تخاطب النبي ﷺ :

ما كان ضرك لو مننت وربما ... منَّ الفتى وهو المغيظ المحنق[48].

وهناك من يرى أن صاحبة الشعر هي قتيلة بنت الحارث أخت النضر، غير أن السهيلي يقول :الصحيح أنها قتيلة بنت النضر، لا أخته[49].

وعندما أودع عمر (ض) الحطيئة في السجن، على هجائه الناس، ومنهم الزبرقان بن بدر، قال الحطيئة قصيدتَهُ الرائية يشكي ويبكي، والتي فيها :

ماذا أقول لأفراخ بذي مرخ ... زُغْب الحواصل، لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسيهم في قعر مظلمة ... فاغفر، عليك سلام الله يا عمر

فأطلق سراحه، ووصله، واشترى منه أعراض المسلمين، وهدده بالعقاب إن رجع لفعلته[50].

---

(46) تمام المتون 266.
(47) العمدة، لابن رشيق 1/56-57، الأغاني 1/19.
(48) الشعر مبثوث في كتب السيرة، والتفسير، والحديث، والأدب... انظر-مثلا- الدرر اللوامع 1/53، 54.
(49) انظر القرطبي 8/58.
(50) العقد (الفريد) 5/293.

ثامنا : ميدان التوحيد والعقائد : روى ابن عبَّاس أن النبي ﷺ لما سمع بيت أمية بن أبي الصلت الثقفي، صدقه، وهو :

رجُل، وثور تحت رجل يمينـــه والنسر للأخرى، وليث يرصد[51].

وقد صدق الرسول ﷺ لبيد الصحابي الشاعر المخضرم في صدر بيت، وكذبه في عجزه، قائلا : «كذبت، نعيم الجنة لا يزول» والبيت هو :

ألا كل شيء ما خلا الله باطـل وكل نعيم لا محالـة زائـــل[52].

وقيل الذي كذَّب وصدق لبيدا هو عثمان بن مظعون[53].

ولما سمع النبي ﷺ أعشى بني الحرماز ينشد : (يا مالك الملك وديان العـرب * ..) يشكو إليه امرأته – كما سبق – قال «مَهْ ! ذاك الله عز وجل»[54].

وهناك شاهد مصنوع، استشهد بن المعتزلة والجهمية والحرورية على تفسير «الاستواء» بالاستيلاء، وهو :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مراق[55].

وهناك بيت آخر استشهد به المعتزلة أيضا على معنى الكرسي في ﴿وسع كرسيه السماوات والأرض﴾[56]، حيث فسَّروا «الكرسي» بعلمه ؛ واستدلوا بهذا البيت الذي لا يعرف قائله :

مالي بعلمك كرسي أكاتمه وهل يكرسيءُ علم الله مخلوق[57].

---

(51) الخازن 120/7، الإصابة 129/1.

(52) الأسد 93/3.

(53) المواهب اللدنية 325/1.

(54) الزينة في الكلمات الإسلامية العربية 100/2.

(55) انظر المحرر الوجيز 8/9، وهامش التيسير 128، للكافيجي.

(56) البقرة، آية الكرسي : 255.

(57) انظر (الزينة 151/2)، تاريخ آداب العرب 273/1 للرافعي.

تاسعا : مجال الفقه : واستعملت شواهد الشعر أيضا في المجال الفقهي والأصولي، لتقرير بعض القواعد ؛ فقد أورد الحافظ ابن حجر في (فتح الباري) شعرا في إثبات القياس، وهو اثنا عشر بيتا من الأبيات الطريفة الممتعة لأبي محمد اليزيدي النحوي المقرئ المشهور، برواية أبي عمرو بن العلاء[58].

وفي (مجالس العلماء) للزجاج شعر يمتزج فيه الفقه بالنحو، ويتغير حكم الفقه فيه، وهو الطلاق بين الرفع والنصب في «ثلاث» ؛ فهو طلقة واحدة لمن روى في الشعر : (والطلاق عزيمة * ثلاث)، وهو الطلاق الثلاث لمن روى : (والطلاق عزيمة * ثلاثاً ...)[59].

عاشرا : ميدان النحو، بمختلف تشعباته : النحو، والصرف، والاشتقاق، والإملاء ... وهكذا نجد الشواهد الشعرية قامت بالدور التأسيسي والتأصيلي لقواعد النحو وضوابطه، وخاصة عند مدرستي البصرة والكوفة. والكوفيون أكثر الناس وضعا للأشعار التي يستشهدون بها. وقد كانوا يتعلقون بالشواذ ويتخذونها أصلا يقيسون عليه، وكان الكسائي أول من فتح لهم هذا الباب، فأفسد النحو بذلك !

واضطر الكوفيون إلى وضع أشعار لتقوية مذهبهم في التقعيد النحوي، حتى كثرت شواهدهم كثرة مذهلة ؛ فقد روي أن خلف الأحمر النحوي مؤدب الأمين كان يحفظ أربعين ألف بيت شاهد في النحو، زيادة على ما كان يحفظ من القصائد وأبيات الغريب ... ورُوي أن أبا مِسحل الأعرابي روى عن علي بن المبارك أربعين ألف بيت شاهد علىَ النحو.

وفي مقابل مذهب أهل الكوفة كان البصريون يتثبتون في

(58) فتح الباري 13/252-253.

(59) انظر مجالس العلماء : 259-261.

أشعار الشواهد، ومنهم إمام النحاة سيبويه الذي سُمّي كتابه : «قرآن النحو» وأودعه أصحّ الشواهد.

قال الجَرْمي : في كتاب سيبويه ألف وخمسون بيتا، سألته عنها فعرف ألفاً ولم يعرف الخمسين[60].

والنحويون حرّفوا أبياتاً أثبتها أهل الشعر، واللغة، وأهل التفسير، وبذلك عظمت الطامة[61]، وكان اعتداد النحويين واللغويين بالشواهد الشعرية لا يقف عند حدّ، لأنها مصدر القواعد[62].

الحادي عشر : ميدان علوم البلاغة، وهي الشواهد المتعلقة بعلم البيان، وعلم البديع، وعلم المعاني. قال عبد السلام هارون -رحمه الله- : شواهد البلاغة لا تعد شواهد بالمعنى الدقيق[63].

الثاني عشر : ميدان العروض، ولا شك أن الخليل بن أحمد مؤسس علم العروض، لم يهتد لذلك إلا بجمع الشواهد الشعرية على اختلاف الأبحر واستخلاص أوزانها، واستقصاء ما في الأشعار العربية من أوزان موسيقية، سمحت له في خاتمة المطاف بتقعيد قواعد علم العروض[64]، وألف كتاب «الشواهد»، ولعلّه في هذا الموضوع[65].

الثالث عشر : مجال الاستشهاد بالشواهد على آراء المذاهب المستحدثة، تقوية لوجهة نظرها، وتأصيلا لمبادئها، كاستشهاد المعتزلة والجهمية، والحرورية لتفسير الاستواء بالاستيلاء بالبيت المشهور :

---

(60) انظر تاريخ آداب العرب 369/1-372، وانظر الطبرى 88/14، 89، 125، 22/15، 84، 22/16، 88/17، 141/18، 34/19.

(61) المقاصد النحوية 347/2، 349.

(62) انظر مقدمة تحقيق المذكر والمؤنث 42 لابن الأنباري.

(63) انظر مقدمة معجم شواهد العربية، لعبد السلام هارون.

(64) انظر العقد (الفريد) 424/5-518.

(65) انظر المفصل، لجواد علي 210/9.

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودم مهراق

وقد قيل إن هذا البيت مصنوع (موضوع)، والمعاجم العربية لا تعرف «استوى» بمعنى استولى(66).

الرابع عشر : مجال الجغرافيا (الأماكن والبلدان)، وهو ميدان رحب للتعريف بالأماكن والبلدان عن طريق الشعر العربي، والاستشهاد به، غير أن المؤلفين في هذا الفن قد عزف بعضهم عن الأشعار تماما، في حين اعتمد آخرون اعتمادا أساسيا على الشعر.

وأذكر من هؤلاء أبا عبيد البكري الأندلسي في كتابه العظيم الأهمية (معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع)، وكذلك (معجم البلدان) لياقوت الحموي، فإن كلا منهما شفى الغليل، وأكثر من ذكر تلك الشواهد التي استقى منها مادته الجغرافية، وضبط مواقعه، وحدد معالمه بفضل ما نصت عليه، وفي هذا الإطار قام بعض المستشرقين الألمان بوضع خريطة دقيقة لمختلف المواقع والجبال والوديان في الجزيرة العربية، مستخرجا ذلك كله من أشعار الجاهليين. وهو عمل عظيم يبعث الروح والحيوية من جديد في نصوص الأدب الجاهلي.

ونجد النبي ﷺ قد لمح وأشار إلى بيت لحسّان يوم فتح مكة، حيث قال لأصحابه الأخيار : «ادخلوها من حيث قال حسان»، وبيت حسان هو :

عدمتُ بنيّتي إن لم تروهـا ... تثيـر النقع موعدها كداءُ(67).

---

(66) انظر المحرر الوجيز 8/9، هامش التيسير، للكافيجي 128.

(67) من قصيدة همزية لحسان بن ثابت، قالها قبل فتح مكة، وصدر البيت في رواية الديوان هكذا : (عدمنا خيلنا إن لم تروها * ..) و«كداء» : الثنية العليا بمكة مما يلي المقابر، وهو المعلّى انظر المواهب اللدنية بشرح الزرقاني 356/2، ديوان حسان بشرح البرقوقي 57.

الخامس عشر : تنوع مجال الاستشهاد : ومن أعجب الشواهد وأغربها ما نراه قد استخدم في أكثر من علم، كالبيت الشهير الذي قرأناه وحفظناه أيام الطلب والتحصيل، في علم النحو، وكذلك قرأناه في علوم البلاغة، حيث يرد شاهدا على التعقيد المعنوي، وهو :

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد[68].

قالوا : والبيت مجهول القائل، وقيل هو للفرزدق[69]. قال العيني: «هذا البيت استشهد به النحاة على جواز تقديم الخبر، والفرضيون على دخول أبناء الأبناء في الميراث، وأن الانتساب للآباء، والفقهاء كذلك في الوصية، وأهل المعاني والبيان في التشبيه، ولم أر أحداً منهم عزاه إلى قائله»[70].

اعتناء العلماء بجمع الشواهد ودراستها ونقدها

وقد اعتنى العلماء بجمع تلك الشواهد على اختلافها عبر الأعصر، باعتبارها ذخيرة فكرية، وباعتبارها أهم دلائل وحجج يتوقف عليها التوثيق العلمي إلى حد كبير، وباعتبارها مصدر القواعد التي تستنبط.

وبرزت عناية العلماء، وخاصة في الصدر الأول، وعصر بداية التدوين بشواهد الشعر العربي الأصيل، وفي طليعته : الشعر الجاهلي، حيث اختيرت أغلب الشواهد من هذا العصر، وتم حفظها وتطبيقها في مجال التفسير واللغة وغيرهما.

ومن السباقين لذلك : ابن عباس رضي الله عنهما، و(مسائل

---

(68) خزانة الأدب 213/1، شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي 520/2.

(69) انظر الخزانة 213/1-214.

(70) الخزانة 213/1، ونقله محققا شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي 520/2.

ابن الأزرق) أحسن تشخيص عملي لهذا المبدأ برمته، ثم اقتدى به من جاء بعده[71].

وابن عبّاس كان أحيانا لا يكتفى بالشاهد الواحد للاحتجاج به على المسألة، وإنما يورد أكثر من شاهد، مبالغة في التوثيق والتوكيد، كما تكرر ذلك في عدّة قضايا من (مسائل ابن الأزرق). وتأثر بهذا المنحى مفسرون، منهم الطبرسي مثلا[72]، والطوسي[73] والطبري[74]، والقرطبي[75]، وأبو حيان[76] وابن عطية[77] وغيرهم كثير.

ويقول جولد تسيهر عن تأثر الطبري بمنهج ابن عبّاس : إن الطبري كان متابعا في ذلك توجيه ابن عباس[78].

وممن اعتنى بجمع الشواهد من المفسرين أيضا في تفاسيرهم من القدامى : ابو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة 209 هـ[79]، ويحيى بن زياد الفراء المتوفى سنة 207 هـ[80]، وأبو إسحاق الزجاج المتوفى سنة 311 هـ[81]، وأبو جعفر النحاس المتوفى سنة 338 هـ[82]، وسواهم ...

وقد كان أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة 244 هـ ممن تأثر بمذهب ابن عباس في الاستشهاد بالشعر على فهم اللغة، وفهم صحة معاني القرآن الكريم[83].

(71) انظر المفصل 666/8 لجواد عليّ، ومقدمة طبقات الشعراء 18.
(72) انظر (مجمع البيان 338/2).
(73) التبيان، في عدة مواضع.
(74) جامع البيان، في عدة مواضع.
(75) جامع أحكام القرآن في عدة مواضع.
(76) البحر المحيط، في عدة مواضع.
(77) المحرر الوجيز، في عدة مواضع.
(78) مذاهب التفسير الإسلامي 114.
(79) انظر تفسيره (مجاز القرآن).
(80) انظر تفسيره (معاني القرآن).
(81) انظر تفسيره (معاني القرآن وإعرابه).
(82) انظر كتابه (إعراب القرآن).
(83) انظر غريب الحديث، لأبي عبيد 370/4-373.

وفي مقابل هذا نجد الإمام الأصمعي، وهو من هو في جمع اللغة وحفظها، وتتبع أخبارها وشواردها، والتبحر في رواية الشعر العربي، وفهمه ونقده، كان يتوقّى التفسير عن طريق اللغة والأشعار العربية[84].

وابن الأنباري أكثر الناس جمعاً وحفظا وتطبيقا لشواهد القرآن ؛ فقد كان يحفظ ثلاثمائة ألف بيت من الشعر، أو تزيد، على تفسير القرآن، كما كان يحفظ أيضا مائة وعشرين من التفاسير[85].

ومن أوائل الكتب اللغوية المشحونة بالشواهد كتب أبي زيد الأنصاري ؛ ففيها من شواهد النحو عن العرب ما ليس لغيره، لأنه من أعلم الناس باللغات ...[86].

وكتب الجاحظ حافلة بالاستشهادات، وخاصة في كتابه «الحيوان»، فهو يذكر فيه أنواع استشهاداته على كل نوع من أنواع معارفه، كالشواهد القرآنية والحديثية وغيرها ...[87].

والإمام الشافعي (ض) المتوفى سنة 204 هـ يعوّل كثيرا على الشواهد الشعرية، لأخذ اللغة، وأوجه قواعد الإعراب لتأكيد صحة ما يذهب إليه[88]. وخبر المناظرة التي دارت بينه وبين أبي عبيد حول مسألة «القُرْء» مذكور مشهور ؛ فكان أبو عبيد يقول : إنه الطهر، وكان الشافعي يقول : إنه الحيض. ولم يزل كل منهما يقرر قوله، حتى تفرقا وقد انتحل كل منهما مذهب صاحبه. ولم يسبق للشافعي أن رجع إلى مذهب أحد في مناظراته إلا إلى مذهب أبي عبيد[89].

(84) انظر أخبار النحويين البصريين : 59، 60-62.

(85) انظر معجم الأدباء 307/18، الحث على حفظ العلم 58.

(86) انظر أخبار النحويين البصريين 53.

(87) الحيوان 12/6-13، 14.

(88) انظر -مثلا- كتابه (أحكام القرآن).

(89) انظر دراستي عن أبي عبيد، القسم الأول 60-61، وطبقات الشافعية، للسبكي 159/2-160.

أما عن الجمع بمعنى التأليف في ميدان الشواهد على اختلاف أنواعها، فقد ألف فيها وجمعها جمهور من العلماء أذكر من ذلك، على سبيل التمثيل، لا على سبيل الحصر :

-شواهد القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام.

- كتاب الشواهد للخليل بن أحمد الفراهيدى.

- كتاب الشعر (أو شرح الأبيات المشكلة الإعراب) لأبي علي الفارسي.

- كتاب المعاني الكبير (في أبيات المعاني)، لابن قتيبة الدينوري.

- كتاب البيان في شواهد القران، لعلي بن الحسين الأصبهاني.

- شرح أبيات سيبويه للسيرافي.

- شرح أبيات سيبويه للشنتمري.

- شرح أبيات إصلاح المنطق، للسيرافي.

- الحلل في شرح أبيات الجمل، للبطليوسي.

- شرح شواهد المغني، للسيوطي.

- شرح شواهد الكشاف، لمحيي الدين أفندي.

- الشواهد والأمثال، لابن نفيس.

- الشواهد الكبرى في النحو لمحمد أسعد القاضي.

- الشواهد الكبرى والصغرى، للعيني (أو شرح شواهد الألفية، أو المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية).

- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، للعباسي.
- تخليص الشواهد وتلخيص الفوائد، لابن هشام، وهو شرح شواهد شرح الألفية، لابن الناظم.
- شرح أبيات الإيضاح والمفتاح (شواهد البلاغة).
- شرح شواهد الشافية، للبغدادي.
- شرح الجرجاوي لشواهد ابن عقيل.
- شرح شواهد ابن عقيل لمحمد قطة العدوي.
- ميدان الفرسان في شواهد القرآن، للسيوطي.
- الإفصاح في شرح أبيات مشكلة الإعراب، للفارقي.
- الانتخاب لكشف الأبيات المشكلة الإعراب، لابن عدلان الموصلي.
- الشواهد الشعرية لمن أراد التفرس في العربية، لمجهول (مخطوط).
- شواهد التوضيح لمشكلات الجامع الصحيح، لابن مالك النحوي.
- شواهد النبوة.
- شواهد المؤرخين، لمحمد أسعد القاضي.
- الدرر اللوامع على شواهد همع الهوامع، للشنقيطي.
- معجم شواهد العربية، لعبد السلام هارون.
- خزانة الأدب، للبغدادي
- شرح شواهد شرح الكافية، للأستراباذي.
- شواهد معاني غريب الحديث للأزهري.

وهذه الشواهد كانت تختار عند المحققين من أصحاب كل فن، فيؤخذ ما صح، ويرفض ما خالف ذلك، وقول الزجاج – بعد إيراده شاهدا لم يرتضه – يبين ذلك، قال : «وهذا الشعر ممّا لا يلتفت إليه، وعمل مثل هذا سهل، وليس يعرف قائل هذا الشعر من العرب، ولا هو ممًّا يحتج به في كتاب الله عز وجل»(90).

والواقع أن الشواهد المستشهد بها، لا تصح جميعها، وقد سبق أن رأينا أن المبالغة في الرواية كانت عند أهل الكوفة، والاقتصاد والتحري فيها عند أهل البصرة.

ومسألة توثيق الشواهد اهتم بها الدارسون قديما وحديثا، لما لها من أهمية عظمى في إثبات صحة الأثر الأدبى(91). وقد رفضوا كثيرا منها ؛ كشعر عاد وثمود، قال فيه أبو عمرو بن العلاء : لا تصح نسبته إليهم. ونقله عنه محمد بن سلام الجمحي في (طبقات الشعراء)(92). كما رفض الاستدلال بشعر أمية بن أبي الصلت الثقفي، لولوعه باستعمال الغريب الذي لم تعرفه العربية، مع افتراض انتحال معظمه(93).

وكذلك رفض الاستدلال بالشعر الحميري في النحو وقواعد العربية، لأنه يحتوي على مجموعة من الألفاظ فيها من الهجنة والرطانة ما يشهد بفساده، وأحرى أن يستشهد به !(94). وقد ذكر جواد علي ضوابط مهمة ومقاييس ضرورية لقبول الشواهد الشعرية في كتابه (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام)(95)، وله كلام مهم

(90) معاني القرآن، وإعرابه، للزجاج 160/3.

(91) انظر –مثلا– (معجم شواهد العربية 5/1 و6).

(92) وانظر الزينة في الكلمات الإسلامية العربية 85/1-86، 90.

(93) انظر المفصل لجواد علي 480/6، 489-500.

(94) انظر المفصل، لجواد علي 369/9.

(95) ج 276/4-277.

أيضا في (جـ 9/674-675) حول صحة الاستشهاد وعدمه بالشعر إذا كان بغير لسان مضر.

ومعرفة قائل الشاهد الشعري كانت لها الأهمية القصوى عند بعض العلماء[96]، بينما كان بعضهم يقبلها على إرسالها، كأبي عبيدة معمر بن المثنى في مؤلفاته، وخاصة (مجاز القرآن) الذي هو الأولى والأحق بعناية اختيار الشواهد ومعرفة قائليها، لأنه مجال الاستشهاد على كلام الله عز وجل[97].

وقد يضع بعض الزنادقة أشعارا تشتمل على معان وألفاظ قرآنية، ثم ينسبها لشاعر جاهلي، لتكتسب مصداقية الشعر الجاهلي[98].

وممن عُدَّ في أول قائمة الوضّاعين : محمد بن دأب الأديب الإخباري الشهير، صاحب مجالس السمر والخبر والفكاهة والنوادر، وعيسى بن يزيد بن دأب، وكان يضع شعرا فاسد المعنى، وينسبه لأعشى هَمَدان[99].

والوضع في الشاهد قد يكون كليا (يشمل البيت كله)، وقد يكون جزئيا، حيث يعمد الناحل الوضاع إلى كلمة أو كلمات فيحذفها ويضع مكانها ما يناسب الوزن، ويساير المعنى الذي أرادهُ[100]. وقد اكتشفتُ نماذج كثيرة من هذا النوع في دراستي لمسائل ابن الأزرق، وعالجتها بما يسر الله من الفهم والتوفيق.

ومن الشواهد التي رأيت أنه وقع فيها تحريف خطير، وخاصة

(96) انظر عمدة القاري 65/4.

(97) انظر مصطلح الحديث وأثره على الدرس اللغوي 98، وباستقصاء من 93-101.

(98) انظر معاهد التنصيص على شواهد التلخيص 193/4.

(99) الأغاني 56/6، وانظر المزهر 414/2، المفصل، لجواد عليّ 51/9 حيث نقل عن المزهر، وأنساب الأشراف 307/2-310.

(100) انظر دلائل الإعجاز 430.

أن معظم كتب التفسير وعلوم القرآن، والأصول، والعقائد قد استشهدت به، وأصبح جاريا على الألسن، وهو :

ترى السفيه به عن كل محكمة زيغ، وفيه إلى التشبيه إصغاء

وصواب رواية البيت – كما وقفت عليه– في (شرح الشريشي 374/2) على مقامات الحريري، ونسبه لسابق البربري، وهو آخر ثلاثة أبيات تتعلق بالحلم والتسفيه، لا بالمحكم والمتشابه، وروايته : «محلمة» بدل «محكمة»، و«التسفيه» بدل «التشبيه».

وقد صحف أيضا أبو عبيدة معمر بن المثنى كلمة «يُشرون» بالشين المعجمة إلى «يسرون» بالسين المهملة في بيت امرئ القيس :

تجاوزت أحراسا وأهوال معشر علي حراص لو يشرّون مقتلى

ليطبقه على تفسير الآية ﴿وأسروا الندامة لما رأوا العذاب﴾[101].

ومن صور التمويه وإفساد الشواهد ما يعرف بعملية التلفيق، حيث ياخذ المستشهد شطر بيت، وعجز بيت آخر، ويعرضهما معا على أنهما بيت (شاهد) مستقل الكيان، ومرت معي أيضا نماذج من هذا القبيل في دراستي لمسائل ابن الأزرق[102].

وليس من اللازم أن تكون عملية التلفيق في الشواهد عن قصد، بل قد تكون عن سهو، كما وقع لابن فارس في مواضع من معجمه (مقاييس اللغة : شنأ، علق، فأو)، فيما رأيت في (نوادر المخطوطات) لعبد السلام هارون رحمه الله[103].

(101) تصحيح التصحيف، للصفدي 558، مصطلح الحديث وأثره على الدرس اللغوي 165-166 نقلا عن (التنبيه على حدوث التصحيف)، لحمزة الأصفهاني، صفحة 58، والآية من سورة يونس 54، وآية سبإ 33.

(102) انظر خزانة الأب 342/2-344.

(103) جـ 158/1.

والشعر المنحول قبل الاحتجاج به جمهور من العلماء رغم صنعته، واشترطوا فيه أمرين أساسيين :

1 – أن يكون محاكيا للأصل، يمثّل – على الأقل – جانبا من الواقع الأصيل[104].

2 – أن يقوم بصنعته المختصون المتمكنون من اللغة وكلام العرب، والعارفون بمذاهب الشعراء[105].

هذا عن الأشعار الأصيلة الفصيحة، أما الأشعار المولّدة، فقد فصّل القول فيها ابن رشيق القيرواني ؛ إذ قال : الاستشهاد يصحّ بأشعار المولدين في المعاني، كما يستشهد بالقدماء في الألفاظ[106].

ولا يهم في الاستشهاد موضوع الشعر، فإنه يصح الاستدلال به على صحة اللغة، ولو كان فاحشا، خلافاً لمن ذهب لمخالفته[107].

مسائل ابن الأزرق بين النشأة، والرواية، والدراسة

قصة نشأة مسائل ابن الأزرق

قبل التعريف بمسائل ابن الأزرق، لا بدّ من إلقاء الأضواء على الإطارين الزماني، والمكاني لقصة نشأتها وظهورها، وتوضيح كثير من الملابسات الخفية التي تتصل بها.

الإطار المكاني لنشأة (المسائل) هو مكة المكرّمة، حيث كان ابن عباس يعقد جلساته العلمية، والناس يحيطون به، يسألونه، وهو

(104) المفصل لجواد علي 9/403-405.

(105) كتاب الزينة 1/118-122.

(106) انظر العمدة 2/236 نقلا عن ابن جني.

(107) انظر دلائل الإعجاز 60-74.

يجيب السائلين ؛ منهم من يسأل عن القرآن، ومعانيه، وأحكامه، وأسباب النزول، والقراءات والمراد منها، ومنهم من يسأل عن الحديث النبوي، والسيرة المحمدية العطرة، ومنهم من يسأل عن الفقه والحلال والحرام، ومنهم من يسأل عن الأحداث والوقائع وتاريخ العرب والعجم ...

ومنهم من يسأل عن لغات العرب وأشعارهم، وخطبهم وأمثالهم وأسجاعهم وغير ذلك، فيجد كل سائل ضالته المنشودة، وغايته المقصودة في أجوبة ابن عباس، وقد مرّ معنا أنه كان يعقد مثل هذه الحلقات العلمية في منزله أيضا لمختلف طبقات العلماء والمتعلمين، ويخصص وقتا محددا لكل أصحاب فنّ من الفنون، وكلما انتهى وقت حصة طائفة، ذكّرهم قائلا : إخوانكم، (أي الذين ينتظرون بالباب)، ثم ينادي على غيرهم لفن آخر، وهكذا دواليك، حتى يقرئهم جميعا.

في هذه الأجواء – وهو يوما بحوض زمزم، يقرىء الناس – برزت قصة هذه المسائل، وذلك أن نافع بن الأزرق[108]، ونجدة بن عامر الحنفي[109]خرجا في نفر من رؤوس الخوارج ينقرون عن العلم ويطلبونه، حتى قدموا مكة، فإذا هم بعبد الله بن عباس قاعدا قريبا من زمزم، وعليه رداء أحمر وقميص، وإذا الناس قيام يسألونه عن التفسير يقولون :

يا ابن عباس، ما تقول في كذا وكذا ؟ فيجيبهم ويقول : هو كذا وكذا. فقال له نافع بن الأزرق : ما أجرأك يا ابن عباس على تفسير القرآن ! وعلى ما تخبر به منذ اليوم. فقال له ابن عباس : «ثكلتك

(108) ستأتي نبذة عن ترجمته.

(109) ستأتي نبذة عن ترجمته.

أمك يا نافع وعدمتك. ألا أخبرك من هو أجرأ مني ؟ قال : من هو يا ابن عباس ؟ قال : رجل تكلم بما ليس له به علم، أو كتم علما عنده. قال : صدقت، يا ابن عباس. أتيتك لأسألك. قال : هات يا ابن الأزرق، فسل. قال : فأخبرني عن قول الله عز وجل ﴿يرسل عليكما شواظ من نار﴾[110]، ما الشواظ ؟ قال : اللهب الذي لا دخان فيه. قال : وهل كانت العرب تعرف ذلك قبل أن ينزل الكتاب على محمد ﷺ ؟ قال : نعم أما سمعت قول أمية بن أبي الصلت ... (ساق له هنا ثلاثة أبيات)، ثم قال نافع بن الأزرق – بعد سماعها : «صدقت»[111].

ويذكر المبرد في «الكامل» أن «نافع بن الأزرق كان ينتجع عبد الله بن العباس فيسأله، فله عنه مسائل من القرآن وغيره قد رجع إليه في تفسيرها فقبله وانتحله، ثم غلبت عليه الشقوة ...»[112].

ونقل المبرد عن أبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي النسابة عن أسامة بن زيد عن عكرمة قال : رأيت عبد الله بن العباس وعنده نافع بن الأزرق وهو يسأله ويطلب منه الاحتجاج باللغة، فسأله عن قول الله جل ثناؤه ﴿والليل وما وسق﴾ فقال ابن عباس : وما جمع. فقال: أتعرف ذلك العرب ؟ قال ابن عباس : أما سمعت قول الراجز :

إن لنا قلائصا حقائقـــا مُستوْسِقات لو يجدن سائقـــا

قال المبرد : «هذا قول ابن عباس، وهو الحق الذي لا يقدح فيه قادح. ويعرض القول فيحتاج المبتديء إلى أن يزداد في التفسير»[113].

والمبرد ينقل لنا مرة أخرى صورة عن تلك الأجواء التي دارت

(110) سورة الرحمن 35.

(111) انظر مجمع الزوائد 6/303-304، 9/278 فيما نقله الهيثمي عن (المعجم الكبير) للطبراني.

(112) الكامل بشرح المرصفي المجلد 4 ج 7/154.

(113) نفس المرجع 7/154.

فيها قصة (مسائل ابن الأزرق) فيقول : ويروى من غير وجه أن ابن الأزرق أتى ابن عباس فجعل يسائله حتى أملَّه، فجعل ابن عباس يظهر الضجر، وطلع عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة على ابن عباس، وهو يومئذ غلام، فسلم وجلس. فقال له ابن عباس : ألا تنشدنا شيئا من شعرك، فأنشده القصيدة التي مطلعها :

أمِنْ آل نُعْمٍ أنت غادر فمبكر ... غداة غد أم رائح فمهجّــــر

حتى أتمها، وهي ثمانون بيتا فقال له ابن الأزرق : الله أنت يا ابن عباس ! أنضرب إليك أكباد الإبل، نسألك عن الدين فتعرض، ويأتيك غلام من قريش، فينشدك سفَها فتسمعه ! فقال : تا لله ما سمعت سفها. فقال ابن الأزرق :

رأتْ رجلا أما إذ الشمس عارضت ... فَيخْزَى وأما بالعشيِّ فيخســـر

«فقال : ما هكذا قال ! إنما قال : (فيضحى وأما بالعشى فيخصر *) قال : أو تحفظ الذي قال ؟ : والله ما سمعتها إلا ساعتي هذه، ولو شئت أن أردها لرددتها. قال : فارددها. فأنشده إياها »(114).

هذا عن المكان الذي جرت فيه الأسئلة والأجوبة، أما عن تحديد الزمن الذي جرت فيه، فلم أر أحدا من المؤرخين، أو الأدباء، أو النقاد تعرض له !

وأرى أن ذلك كان على وجه التقريب فيما بين 45 و55 هجرية، وتوافق هذه الفقرة تحديد عمر ابن أبي ربيعة فيما بين 22 و32 سنة، وهي فترة شبابه، لأنه ولد سنة 23 هـ، ولأن أغلب من ذكر قصة هذه المسائل يصف ابن أبي ربيعة بأنه غلام، أو شاب، ولأن قصيدته فيها من النفس الشعري المسلسل الطويل، ومن براعة التعبير، ورشاقة

(114) نفس المرجع 7/164-166.

الألفاظ وانتقاء اللغة، ما يبرهن على أنها شعر ناضج، ولا يتأتى ذلك قطعا لمن هو دون سن العشرين من عمره.

نعم قد يجيد ناشيء البيت أو البيتين، أو الأبيات القليلة، ولكن لا يتسنى له إنشاء قصيدة بمثل حجم، وجودة، وإتقان ما جادت به قريحة ابن أبي ربيعة، والتي فاقت ثمانين بيتا، جميعا أبياتها في غاية الروعة والجلال والجمال، والإيقاع الموسيقي الراقص الأخّاذ.

ومن القرائن على تحديد فترة نشأة تلك المسائل قدوم نافع بن الأزرق، مع نجدة بن عامر الحنفي في نفر من رؤوس الخوارج إلى ابن عباس ينقُرون عن العلم ويطلبونه، كما سبق قريبا.

فهذا يدل صراحة على أنهم خوارج، والخوارج كان خروجهم على علي ابتداء من سنة 37 للهجرة بعد وقعة صفين وإجراء عملية التحكيم...

ومن القرائن أيضا التي تؤخذ من خبر قدوم الخوارج الى ابن عباس أنهم كانوا لا يزالون صفا واحدا قبل أن يظهر ابن الأزرق مبادئه المتشددة، وينقسم الخوارج سنة 64 هجرية إلى أزارقة، ونجدات، وأباضية، وصفرية، ثم تتفرع فرق أخرى عن هذه الأربع ..

مع العلم أن نشأة هذه المسائل كانت قبل أن يعمى ابن عباس، وهو ما حدَّدناهُ في حوالي سنة 60 للهجرة.

وبصفة عامة، فإن زمن هذه المسائل كان في عهد معاوية بن أبي سفيان.

وللتعريف بهذه المسائل أقول : هي مجموعة من الكلمات القرآنية صعب أمرها واستشكل فهمها على نافع بن الأزرق، فجاء يسأل عنها ابن عباس، كغيره من ألوف السائلين الذين يلتفُّون حول ابن عباس في حلقاته العلمية، لكنه اشترط على ابن عباس أن ياتيه

بشواهد من الشعر من كلام العرب، تصدق ما أدلى به من شرح وتفسير.

ولذلك تكرر قول ابن الأزرق لابن عباس : «أو تعرف العرب ذلك» ؟ عقب كل شرح لابن عباس، أو بلفظ آخر : «وهل كانت العرب تعرف ذلك قبل أن ينزل الكتاب على محمد ﷺ»؟

ولابن الأزرق أسئلة أخرى كثيرة سأل عنها ابن عباس، تتخلل التفاسير القرآنية، مع إجابات ابن عباس عنها، غير أنها تنفرد عن هذه المسائل بكونها لم يشترط فيها ابن الأزرق استحضار كلام العرب، وأشعارها، وبكونها لا تختص بجانب معين، كالجانب اللغوي فقط في (مسائل ابن الأزرق)، وإنما هي تتوزعها اهتمامات متنوعة، مثل القراءات والتفسير، والفقه، والتوحيد، والمغيبات، بل وحتى البحث عن الحيوانات وأسرارها ؛ فقد روي أنه سأل عن الهدهد، ودوره في خدمة نبي الله سليمان عليه السلام، فقال : «أرأيت نبي الله سليمان مع ما خوله الله وأعطاه كيف عُني بالهدهد على قلته وضؤولته ؟ فقال ابن عباس : إنه احتاج إلى الماء. والهدهد قنَّاءٌ، الأرض له كالزجاجة يرى باطنها من ظاهرها، فسأل عنه لذلك، قال ابن الأزرق : قف يا وقاف ! كيف يبصر ما تحت الأرض، والفخُّ يغطَّى له بمقدار أصبع من تراب، فلا يبصره حتى يقع فيه ؟! فقال ابن عباس : ويحك ! يا ابن الأزرق، أما علمت أنه إذا جاء القدر عشي البصر»(115)، وفي رواية أخرى «أما علمت أن القضاء يغلب الحذر»(116).

---

(115) الكامل بشرح المرصفي / المجلد 4 ج 161/7، غرائب القرآن 227/1، الطبري 89/19، القرطبي 178/13، زهر الأفنان 374/1-375، الشذرة في الأحاديث المشتهرة 50/1، محاضرات الأدباء 678/4.

(116) مخطوطة الظاهرية لمسائل ابن الأزرق / المجموعة 1، وانظر الحيوان، للجاحظ 512/3-513، و309/6-310، ثمار القلوب 384، تفسير الهواري 250/3.

وتبدو جراءة ابن الأزرق على ابن عباس من بداية الأمر إلى نهايته، حتى زمن عمى ابن عباس رضي الله عنهما ؛ فقد نقل ابن عطية عن الطبري أن نافع بن الأزرق الخارجي قال لابن عباس : يا أعمى البصر، أعمى القلب، تزعم أن قوما يخرجون من النار وقد قال الله تعالى : ﴿وما هم بخارجين منها﴾[117] فقال له ابن عباس : ويحك ! اقرأ ما فوقها، هذه الآية في الكفار»[118].

ونافع بن الأزرق : هو نافع بن قيس الحنفي البكري الوائلي، الحروري[119]، كنيته : أبو راشد، من شيوخ الخوارج في القراءة[120]، كان رئيس الأزارقة وفقيههم، من أهل البصرة، وقيل من أهل الكوفة[121]، وقيل من «عبيد» بالطائف[122].

وقد صاحب ابن الأزرق عبد الله بن عباس، وكان يجالسه بمكة ويسأله ويعارضه[123]، وينتجعه ويتباحث معه في مسائل كثيرة[124]، معظمها يتعلق بالقرآن ومنها هذه المعروفة بمسائل ابن الأزرق، وقد قال ابن عباس في جلسة من جلساته لابن الأزرق، ونجدة بن عامر الحنفي – وقد أرادا سؤاله – – : سلا عما بدا لكما، [تجدا علمه عندي حاضرا، إن شاء الله تعالى][125].

---

(117) سورة المائدة 37.

(118) المحرر الوجيز 95/5، فتح القدير 38/2-39، الطبري 147/6، التبيان :511/3

(119) وحول نسب ابن الأزرق، وأصله انظر : نهاية الأرب 93، فتوح البلدان 67، المعارف 44، 266-267، سرح العيون 194-205، المفصل لجواد علي 517/6، 607، طبقات ابن سعد 247/3، أخبار مكة للأزرقي 11/1، 12، 13، 23، 31، 247/2-248.

(120) ملخص تاريخ الخوارج 34.

(121) تاريخ بغداد 156/8.

(122) جوامع السيرة، لابن حزم 193.

(123) فتح الباري 427/8.

(124) ملخص تاريخ الخوارج 121.

(125) مخطوطة الطستي لمسائل ابن الأزرق – لوحة 124، وانظر الإتقان 56/2.

وكان ابن الأزرق من الفقهاء القراء الشجعان ؛ جمع بين فصاحة اللسان، وشجاعة القلب والجنان، مقداما على الطعن والضرب بالسيف والسِّنان، كان من فرسان القتال، كما كان من الشعراء البلغاء يمتاز بجزالة اللفظ، وقوة المعنى، شأن شعراء الحماسة. ومن شعره في قتل مسعود بن عمرو العَتَكِي الأزدي :

فتكْنا بمسعود بن عمرو لقيله ... لبَبَّة : لا تُخرج من السجن نافعا
ولا تُخرجنْ منه عطية وابنه ... فخضنا له شوبا من السم ناقعا
وكانت له في الأزد حال عظيمة ... وكان لما يهوى من الأمر مانعا
فقالت تميم : نحن أصحاب ثاره ... ولن ينتهوا حتى يعضُّو الأصابعا
ويَصلَوا بحرب الأزد والأزدُ جَمرةُ ... متى يصطلوها يُصبح الأمر جاشعا
فقل لتميم : ما أردتم بكذبة ... تكون لها الأوطان منكم بلاقعا[126].

وتسمى ابن الأزرق بأمير المؤمنين عندما بايعه أصحابه من البصريين، ثم استولى على الأهواز وأقام بها، وعظم أمره، واشتد خطره، وقويت شوكته مع أصحابه[127] الذين غلوا في تطرفهم، وتشددوا في عقائدهم، حتى أدى بهم الأمر إلى تكفير جماعة من الصحابة، ومنهم ابن عباس [128]الذي صدقت فراسته في نافع بن الأزرق، وكان قد قال له قديما : «ويحك يا ابن الأزرق ! ليكونن لك نبأ»[129].

وجرأة ابن الأزرق دفعته إلى مخاطبة ابن عباس مراراً بأسلوب وقح، منها ما حدث بعد عمى ابن عباس ؛ حيث خاطبه بقوله : يا أعمى البصر، يا أعمى القلب !

(126) ديوان الخوارج 207، نوادر المخطوطات 172/2، شعر الخوارج لإحسان عباس. و«ببة» هو لقب عامل البصرة : عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب.

(127) جمهرة خطب العرب 446/2 نقلا عن الكامل للمبرد 180/2، ملخص تاريخ الخوارج 39، ابن أبي الحديد 455/1، الأغاني 142/6.

(128) انظر الملل والنحل 121/1.

(129) انظر الدر المنثور 260/2، وآخر دراسة شاهد (مخمصة) / القسم 327/2 من أطروحة الباحث.

ولئن كان الخوارج كما وصفهم الشاعر بقوله :

وقدم الخوارج الضُّلال إلى عباد ربهم فقالوا :

إن دماءكم لنا حلال[130]

فإن الأزارقة أسوأ فرق الخوارج حالا[131].

والأزارقة وصفهم المهلب بن أبي صفرة، بالفصاحة، قال، وهو يقاتلهم : «الأزارقة قوم عرب، لهم بصر بالشعر، ويقولون فيه بالحق»[132].

وزعم أهل الأخبار أن الأزارقة من العمالقة الذين كانوا ينزلون الحجاز[133]، وهذا يناقص ما عرف به نافع بن الأزرق ؛ فقد ثبت أنه كان أصلع قصيراً[134].

وقد قتل نافع بن الأزرق في وقعة (دولاب) سنة 65 هـ، قتله مسلم بن عبيس، ثم قتل هذا أيضا[135].

وابن الأزرق معدود في أهل البدع والأهواء والضلالات، ولذلك أضربت عن ذكره معظم كتب الجرح والتعديل وغيرها، وقليل منها ذكرته على سبيل القدح والذم والتجريح.

ولاعقب لابن الأزرق[136]، وقد رثاه رجل من الخوارج بعشرة أبيات، يرد فيها على المهلب والشامتين بموته، وهي :

---

(130) فتح القدير 70/4.

(131) التنبيه والرد للملطي 167، التبصير في الدين للأسفراييني 49، البدعة للدكتور عزت 319-359.

(132) الأغاني 43/8.

(133) المفصل لجواد علي 517/6، 607.

(134) مخطوطة الظاهرية/ المجموعة 2 / لوحة 113.

(135) جمهرة خطب العرب 446/2 نقلا عن الكامل للمبرد 180/2، زهر الأفنان 130/1، 231-232، تاريخ خليفة بن خياط 197، الأخبار الطوال 273.

(136) انظر المعارف 206.

شمت المهلب والحوادث جمة ... والشامتون بنافع بن الأزرق
إن مات غير مداهن في دينه ... ومتى يمرّ بنكر نار يصعق
والموت أمر لا محالة واقع ... من لا يصحبه نهاراً يطرق
ورمى المهلب جمعنا بجموعه ... لما أصبنا بالصبور المتقي
فلئن أمير المؤمنين أصابه ... ريبُ المنون فمن يصبه يغلق
نعم الخليفة من حذانا نعله ... ذاك ابن ماحوز بقية من بقي
ولئن مُنِينا بالمهلَّب إنه ... لأخو الحروب وليث أهل المشرق
ولعله يشجى بنا ولعلنا ... نشجى به في كل ما قد نلتقي
بالسمر نختطف النفوس ذوابلا ... وبكل أبيض صارم ذي رونق
فينيقنا في حربنا وننيقه ... كل مقالتُه لصاحبه : ذُقِ (137).

أما **نجدة**، فهو ابن عامر، ويقال : عويمر، ويقال : عويم بن عبد الله بن ساد، أحد بني حنيفة .. البكري الوائلي، واسمه عند ابن عبد ربه الأندلسي «نجدة بن عاصم الحنفي الخارجي»(138)، وكان من أصحاب نافع بن الأزرق، وكان يصاحبه في رحلاته العلمية، وكان يسأل ابن عباس باستمرار مشافهة ومكاتبة ؛ فقد كاتبه يسأله عن المهدي(139)، وكاتبه يسأله عن خمسة أشياء، سبق لنا ذكرها في فصل التحمل والأداء(140)، جاء في مقدمة جواب ابن عباس عن سؤال نجدة : «إن الناس يقولون : إن ابن عباس يكاتب الحرورية، ولولا أني أخاف أن أكتم علما، لم أكتب به إليه ...»(141).

وفي خاتمة المطاف يختلف نجدة الحروري مع ابن الأزرق نظراً

(137) ديوان الخوارج 230، الأخبار الطوال 274، وفي هذا سبعة أبيات فقط.
(138) العقد (الفريد) 394/2، 396، 398.
(139) كتاب الفتن لنعيم بن حماد 231.
(140) سأله هل كان الرسول ﷺ يغزو بالنساء، وهل كان يضرب لهن بسهم، وهل كان يقتل الصبيان، ومتى ينقضي يتم اليتيم، ولمن هو الخمس؟
(141) انظر تفاصيل السؤال والجواب في ص 52 من قسم الدراسة من أطروحة الباحث.

لمبالغة هذا في التشدد والمغالاة، فافترقا. وكان ضمن نقط الاختلاف ما جاء في رسالة نجدة إلى ابن الأزرق :

1 – تكفير ابن الأزرق للقعدة. 2 – استحلاله قتل الأطفال.
3 – عدم تأديته أمانة مخالفيه.

ثم رد عليه ابن الأزرق بجواب ينقض له فيه النقط الثلاث المذكورة[142].

وقد حفلت مصادر ومراجع كثيرة بخبر اختلاف الخوارج، وانقسامهم إلى طوائف كثيرة[143].

وظهرت قوة نجدة، وانتشر مذهبه باليمامة والبحرين، وذلك سنة 66 هـ حيث بايعه أهلها[144]، وحج بهم، فوقف نجدة بأصحابه، ووقف ابن الحنفية بأصحابه، ووقف ابن الزبير بأصحابه[145]، وعسكر نجدة بأصحابه في شِعْب من شعاب مكة، فعرف بشِعْب الخوارج[146].

ومن شعر نجدة بن عامر قوله :

وإن جرّ مولانا علينا جريـــرة صبرنا لها إن الكرام الدعائم[147].

ومما هجي به نجدة قول الراعي (الشاعر)، وذلك في قصيدة له تجاوزت ثمانين بيتا(86)، مدح فيها عبد الملك بن مروان، وتبرأ من اتهامه بميله لابن الزبير، أو لنجدة بن عامر، وذلك قوله :

---

(142) انظر رسالة نجدة الحنفي إلى ابن الأزرق في ديوان الخوارج 281، وجواب ابن الأزرق في صفحة 278.

(143) انظر جمهرة خطب العرب 169/2-173، تاريخ الطبري 55/7، تاريخ ابن خياط 194، ملخص تاريخ الخوارج 34، القرطبي 161/4، الكامل بالمرصفي / المجلد 4 ج 219/7.

(144) شذرات الذهب 74/1.

(145) تاريخ ابن خياط 202.

(146) أخبار مكة 287/2.

(147) ديوان الخوارج 208.

إني حلفت على يمين برة ... لا أكْذِب اليوم الخليفة قيلا
مازرت آل خبيب طائعا ... يوما أريد لبيعتي تبديلا
ولما أتيت نجيدة بن عويْمر ... أبغي الهدى فيزيدني تضليلا[148].

فما لبث نجدة أن اختلف عليه أصحابه، فقتل غيلة سنة 69 هـ، وهو في ريعان الشباب، وانقسمت بعده فرقته إلى فرق[149].

وبهذا أكون قد ألقيت نظرة عن قصة نشأة مسائل ابن الأزرق، وما أحاط بها من ظروف زمانية، ومكانية، وعرَّفت بتلك المسائل، مبينا طبيعتها، ودوافعها، وأهدافها، وترجمت لمن حاورهما ابن عباس في شأن أمرها، وهما ابن الأزرق ونجدة الحروريان، وهكذا يستمر حديثي في الفصل الموالي عن رواية تلك المسائل، والرواة الذين رووها، إلينا عبر الأعصر إن شاء الله تعالى.

رواية مسائل ابن الأزرق وأشهر الرواة

انتشرت رواية هذه المسائل منذ عهد ابن عباس، لأنه فتح بها لكافة المفسرين من بعده باب الاستشهاد بالشعر على مختلف الأغراض، ومن ثم أصبحت هذه الطريقة، وهذا المنهج ميداناً للتنافس عند أصحاب كل فن ..

ويظهر أن (مسائل ابن الأزرق) كغيرها من أوائل العلوم في الإسلام، لم تدوّن حين نشأتها، وإنما كان اعتماد العلماء في نقلها على الرواية الشفوية وحدها، ولم تدون مجموعة إلا في القرن الرابع الهجري على يد بعض العلماء، سيأتي الحديث عنهم، كل منهم قام

(148) جمهرة أشعار العرب 920/2، طبقات الشعراء 118، الكامل بالمرصفي / المجلد 4 ج 102/7، اللسان (ضلل).

(149) انظر أسماء المغتالين، ضمن نوادر المخطوطات 178/2، الاشتقاق 324/2، شذارت الذهب 76/1، التبصير في الدين 51.

بعمل فردي، فجمع منها ما تيسّر له جمعه، وأوسعهم جمعا لذلك هو الإمام عبد الصمد الطستي، كما سنرى.

هذا عن الجمع المنظم لتلك المسائل، أما الإشارة إليها، أو إلى الموضوع العام الذي دارت حوله، وهو استشهاد ابن عباس بالشواهد الشعرية على تفسير غريب القرآن، أو ذكر بعض النماذج منها ؛ الشاهد، والشاهدين وغير ذلك فقد تكفلت بها كثير من كتب التراث القديمة، كأبي عبيد القاسم بن سلام (244 هـ) في (فضائل القرآن) حيث يقول :

«حدثنا هشيم حصين بن عبد الرحمان عن عُبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس أنه كان يُسأل عن القرآن فينشد فيه الشعر، قال أبو عبيد : يعني بذلك أنه كان يستشهد به على التفسير»[150].

ثم ساق أبو عبيد بعد هذا طائفة من تفسيرات ابن عباس اللغوية لكلمات قرآنية، مستشهداً على بعضها بالشعر، ولكن دون التنصيص على اسم ابن الأزرق، أو اسم مسائله !

فقد ساق مسألة ﴿والليل وما وسق﴾[151] بسنده المتصل إلى مجاهد عن ابن عباس، قال في (والليل وما وسق) : ما جمع، وأنشد : (قد اتسقن لو يجدن سائقا *)[152].

وساق مسألة ﴿فإذا هم بالساهرة﴾[153]، بسنده المتصل أيضا إلى عكرمة عن ابن عباس. قال في تفسير «الساهر» : الأرض، وأنشد عليها قول أمية بن أبي الصلت الثقفي :

---

(150) انظر (فضائل القرآن) لأبي عبيد 173/2 بدراستي وتحقيقي.

(151) الانشقاق 17.

(152) هذا عجز بيت من بحر الرجز المسدس الدائرة نسب في (اللسان - وسق) للعجاج. وقيل البيت لابن صرمة. وفي ألفاظه روايات، ليس هذا محل بسطها. وصدره : (إن لنا قلائصا حقائقا *).

(153) النازعات : 14.

(عندهم لحم بحر ولحم ساهر *)[154].

ونص المبرد أيضا في كتابه (الكامل) على نبذة يسيرة منها، عندما ساق خبر قدوم ابن الأزرق، ونجدة بن عامر ومعهما نفر من الخوارج، إلى ابن عباس، وحكى الحوار الذي دار في المجلس وسماع ابن عباس قصيدة عُمر بن أبي ربيعة، وحفظه لها ...

وهو يؤكد على أن خبر هذه المسائل منتشر مستفيض تأكد لديه من غير وجه، وقد استند في بعض رواياته إلى أبي عبيدة معمر بن المثنى (المتوفى سنة 209 هـ) والذي يعد أول من تقمص المنهج اللغوي عند ابن عباس في التفسير، فطبقه في تفسيره[155].

غير أن الذي يدعو للتساؤل هو لماذا خلت مؤلفات قبله من هذا كليا أو جزئيا، مثل تفسير مجاهد الذي بين أيدينا ؟، وهو من أشهر تلامذة ابن عباس، وقد تحدث بذلك عن نفسه قائلا : ختمت على ابن عباس ثلاث ختمات – وفي بعض الروايات أكثر من ذلك – أقف عند كل آية وأسأله عنها[156].

وكذلك التفسير المنسوب لابن عباس، الذي جمعه الفيروز آبادي تحت اسم : «تنوير المقباس من تفسير ابن عباس» ؛ فقد تتبعته كله، ولا أثر فيه، ولو بإشارة عابرة إلى قصة هذه المسائل، ولا وجود فيه لأيّ شاهد شعري من الشواهد التي استعملها ابن عباس !!

وكأن كبار المفسرين اللغويين القدامى لم يحفلوا بهذه المسائل،

(154) قلت في هامش (فضائل القرآن 173/2) : هذا صدر بيت غير مستقيم –هنا– في رواية أبي عبيد، ويوجد البيت سالماً، وهو من البحر الوافر، في (روح المعاني 28/30، القرطبي 199/19، التبيان 254/10، الطبري 23/30، مجمع البيان 429/10، البحر 417/8). ونص البيت :

وفيها لحم ساهرة وبحر وما فاهوا به لهم مقيم

وفي بعض الروايات «أبدا» بدل «لهم»، ومعناهما صحيح، وكذلك وزنهما.

(155) انظر (مجاز القرآن).

(156) الطبري 113/30-114، ومعجم الأدباء 77/17-78.

رغم اعتمادهم على منهج ابن عباس بصفة عامّة، والذي تبنَّوهُ وطبقوه، أو أنَّ هذه المسائل لم تكن بهذه الضخامة والكثرة التي وصلت إلينا، وتكاثر عددها على مر السنين ؟! حتى حملت بعض الدراسين على القول بانتحال بعضها، أو انتحالها كلها جملة وتفصيلا !

وفي ذلك الحكم إسراف ومغالاة، كما هو الشأن عند بعض المستشرقين، وعند بعض العرب، ومنهم الدكتور طه حسين، والدكتور جواد علي.

ويتجلى عدم احتفال أولئك المفسرين الكبار بهذه المسائل في صنيع يحيى بن زياد الفراء (المتوفى سنة 207هـ)، وهو من هو في اللغة، والعربية والتفسير[157]، وسفيان الثوري (المتوفى سنة 161هـ)[158]، والشيخ هُود الهواري الخارجي الإباضى الجزائري (المتوفى حوالي 280 هـ)، وقد أكثر الرواية عن ابن عباس[159]، والإمام الشافعي (المتوفى سنة 204هـ)[160]، والأخفش (الأوسط) سعيد بن مسعدة (المتوفى فيما بين 207 و225 هـ)[161]، والإمام محمد بن جرير الطبري (المتوفى سنة 310 هـ)[162]، وأبي إسحاق الزجاج (المتوفى سنة 311 هـ)[163]، وأبي جعفر النحاس (المتوفى سنة 338هـ)[164]، والإمام الماوَرْدِي (المتوفى سنة 450 هـ)[165]، والإمام

(157) أنظر كتابه (معاني القرآن).
(158) أنظر تفسيره الذي طبع حديثا.
(159) أنظر تفسير الهواري.
(160) أنظر كتابه (أحكام القرآن).
(161) أنظر كتابه (معاني القرآن).
(162) انظر تفسيره (جامع البيان).
(163) أنظر له (معاني القرآن وإعرابه).
(164) أنظر كتابه (إعراب القرآن).
(165) انظر تفسيره (النكت والعيون).

الطوسي شيخ طائفة الشيعة (المتوفى سنة 460 هـ)[166]، وتلميذه الطبرسي (المتوفى سنة 548 هـ)[167]، وجار الله الزمخشري (المتوفى سنة 538 هـ)[168]، والإمام ابن عطية (المتوفى سنة 546هـ)[169].

إذا كان هؤلاء الرواد الأوائل في علم التفسير لم يعرفوا كل هذه المسائل، ولم يرووها في تفاسيرهم فمن أين جاءت هذه الكثرة الكاثرة منها ؟ ولماذا انتشرت في كتب التفسير الأخيرة فيما بين القرنين السادس والسابع الهجريين انتشارا مذهلا ؟

وهذه الاعتبارات وغيرها دفعت كثيرا من المستشرقين، وبعض العرب إلى الطعن في هذه المسائل، مثل طه حسين الذي نفى وجحد كثيرا من الشعر الجاهلي، وقال بنفي أسماء لشعراء جاهليين أيضا، واعتبر كل شعر عند العرب، وكل أثر أدبي ضربا من المتخيل، لم يكن له في يوم من الأيام صلة بالواقع، والغريب أنه يناقض بنفسه كثيرا من آرائه ومواقفه، وذلك في كتابه (القديم) : «في الشعر الجاهلي»، وكذلك بقي الجحد والإنكار في طبعته الجديدة باسم «في الأدب الجاهلي»، وكان من جملة ما أنكره فيه : «مسائل ابن الأزرق» التي يقول عنها إنها أساطير وضعت في سهولة ويسر[170].

والهدف من وراء إنكار الشعر الجاهلي هو ضرب عملية الاستشهاد بهذا الشعر على اللغة، وفي المقام الأول على تفسير القرآن الكريم !! وإذا سقط الشاهد سقط المستشهد عليه، وفي ذلك ما فيه من فساد النية، وسوء العاقبة، وتدمير وجدان الأمة المتمثل في

---

(166) أنظر تفسيره (التبيان).

(167) تفسيره (مجمع البيان).

(168) أنظر تفسيره (الكشاف).

(169) أنظر تفسيره (المحرر الوجيز).

(170) ينظر كتاباه : (في الشعر الجاهلي)، و(في الأدب الجاهلي).

رمز وجودها، وسر قوتها وعظمتها : «لغتها» التي تحيا بحياتها وتموت بموتها.

غير أن سقطة طه حسين لم تُفلت من عقاب، فقد تصدى للرد عليه جماعة كبيرة من علماء الأمة وحملة الأقلام ؛ فكان منهم العلامة المحقق المدقق مصطفى صادق الرافعي[171]، والشيخ الخضري[172]، ومحمد أحمد الغمراوي[173]، وغيرهم .. مما أحدث صدى في الحركة الفكرية المعاصرة.

إلا أن صيحة طه حسين قد وجدت من يصغي لها وربما يطري، وتأثرت أفكار رجال برأيه، فقد رأيت - فيمن رأيت- الدكتور جواد علي الدارس والباحث الكبير ممَّن يقول بانتحال (مسائل ابن الأزرق)، ويصرح أنها وضعت في العصر العباسي، ويدعو إلى البحث عن أقدم مَوْرِدٍ وردت فيه إشارة إليها، قائلا : «فحينئذ يمكن تعيين الزمان الذي وضعت فيه بوجه تقريبيّ»[174].

وأصابع كثير من الباحثين الذين انساقوا مع هذا التيار تشير إلى أن المتهم - في الدرجة الأولى- بوضع هذه المسائل هو عيسى ابن يزيد المعروف بابن دأب الليثي البكري الكناني، أبو الوليد، الخطيب، الشاعر، الراوية، من أهل المدينة، من أكابر علماء النسب وأخبار العرب وأشعارهم.

كان ابن دأب يضع بالمدينة الشعر وأحاديث السمر، وينسب كلاما إلى العرب. وقد فاق أهل الحجاز أدباً وعلْما وعذوبة لفظ، ومعرفة شاملة بأخبار الناس وأيامهم عربا وعجماً، وكان لذيذ

(171) انظر كتابه القيم (تاريخ آداب العرب).

(172) انظر كتابه (نقض كتاب في الشعر الجاهلي).

(173) انظر كتابه (النقد التحليلي لكتاب «في الأدب الجاهلي)».

(174) انظر كتابه (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 665/8، وبتفصيل من 663-665).

المفاكهة، طيب المسامرة، كثير النادرة، جيد الشعر، حسن الانتزاع له، معدوداً من نقلة الأخبار، ونقاد الأشعار، حظي عند المهدي العباسي حظوة لم تكن لأحد قبله [175] ؛ فكان يلازمه ويُسمعه أحاديث السمر، وكان المهدي يعجب به أيما إعجاب، ويستنشده الأشعار، كما تذكر كتب الإخباريين كأبي الفرج الأصبهاني وغيره[176].

ونال ابن دأب نفس الحظوة أيضا عند الخليفة الهادي، حتى أصبح من مستشاريه، وأقرب الناس إليه[177]، وخاصة خاصته، في جده، وهزله، وفي مسامراته، التي ساق المسعودي في (المروج) بعض أخبارها[178]، ثم قال :

« ولابن دأب مع الهادي أخبار حسان يطول ذكرها، ويتسع علينا شرحها، ولا يتأتى لنا إيراد ذلك في هذا الكتاب ؛ لاشتراطنا فيه على أنفسنا الاختصار والإيجاز بحذف الأسانيد وترك إعادة الألفاظ»[179].

وقال الجاحظ، أثناء حديثه عن النسَّابين من العرب : «ومن بني كنانة، ثم من بني ليث، ثم من بني الشُّدَاخ : يزيد بن بكر بن دأب، وكان يزيد عالماً بالنسب، وراوية شاعراً. وهو القائل :

الله يعلم في علي علمَهُ وكذاك علم الله في عثمان»[180].

ثم قال : «وولد يزيد يحيى وعيسى، **فعيسى هو الذي يعرف في**

(175) الأغاني 2/2، 165/9، البيان والتبيين 323/1-334، تهذيب التهذيب 153/9.

(176) انظر الأغاني 165/9.

(177) انظر المحاسن والأضداد 138 و139.

(178) انظر مروج الذهب 328/3-331.

(179) المروج 331/3.

(180) البيان والتبيين 323/1.

العامة بابن دأب، وكان من أحسن الناس حديثا وبيانا، وكان شاعرا راوية،وكان صاحب رسائل وخطب، وكان يجيدهما جدا»[181].

وذكر السيوطي في (المزهر)، وهو يعدد علماء الأمصار، أن ابن دأب كان له شأن في المدينة المنورة قال : «فأما مدينة الرسول ﷺ فلا نعلم بها إماما في العربية، قال الأصمعي: أقمت بالمدينة زمانا ما رأيت بها قصيدة واحدة صحيحة إلا مصحفة، أو مصنوعة، وكان بها ابن دأب، يضع الشعر وأحاديث السمر، وكلاما ينسبه إلى العرب، فسقط وذهب علمه، وخفيت روايته، وهو عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب، يكنى أبا الوليد، وكان شاعرا، وعلمه بالأخبار أكثر»[182].

وفي ابن دأب هذا يقول معاصره الأديب الإخباري الشاعر محمد بن مُناذِر موصيا بالرواية والأخذ عن الإمامين : مالك بن أنس، وابن عون، ومحذّراً من الرواية عن ابن دأب :

ومن يبغي الوَصاة فإن عندي ... وَصاة للكهول وللشباب

خذوا عن مالك وعن ابن عون ... ولا تروُوا أحاديث ابن دأب[183]

وتوفي ابن دأب، هذا، سنة 171 هـ، قال ابن قتيبة : وله عقب بالبصرة[184].

أقول : ولكن تعميم الحكم بوضع هذه المسائل كلها فيه غلو كبير، وفيه ردّ - بغير موجب - لما ثبت نقله من هذه المسائل عن الأثبات الثقات، الذين سبق لنا ذكر بعضهم، لأن ألفاظا كثرة عند الدارسين لا توضع في مواقعها من البحث، والدراسة، مثل «جميع»، و«كل»، و«كافة» وما شابهها، فكثيراً ما تنعكس سلبياتها على أثر الدارس ...

---

(181) نفسه 324/1.

(182) المزهر 413/2-414، وانظر تهذيب التهذيب 153/9.

(183) عيون الأخبار 139/2.

(184) انظر المعارف 234، والأعلام، للزركلي 298/5.

على عكس النظرة التي فيها اعتدال وقبول للأشياء، والتوسط فيما ينبغي فيه التوسط ؛ فرفْضُنا لكل هذه المسائل فيه بعد عن الصواب، وإجحاف بثقة من نقل بعضها من الثقات، كما أن قبولنا بها كلها في ما يناقض الحقيقة والواقع لأن تكثيرها وتضخيمها أمر محتمل الوقوع، وقد كذب على سيد الأولين والآخرين !! وقد ثبت عندي أثناء دراستي لهذه المسائل ونقدها نماذج منها، لا يمكن قبولها بأي حال من الأحوال، ولا عدُّها من (مسائل ابن الأزرق)، مقيما - في كثير من المواقف- الحجج اللغوية، والتاريخية، والنقدية وغيرها على عدم صحتها.

ومن أولئك الرواة الثقات الذين نقلوها ودوّنوها في مجموعات، أو ضمن كتبهم، أو نصوا على صحة قصة نشأتها هؤلاء الأعلام :

1 - أبو عُبيد القاسم بن سلام (ت 244هـ) ؛ فقد سبق قريبا أنه نص على أصل هذه المسائل ونشأتها، وأورد نماذج من استشهادات ابن عباس على معاني كلمات قرآنية، وذلك في كتابه (فضائل القرآن)[184].

2 - المبرد محمد بن يزيد المولود بالبصرة والمتوفى سنة 286هـ، أبو العباس أحد الأئمة الكبار في الأدب والنقد والأخبار، كان إمام العربية ببغداد في زمنه، من أشهر كتبه (الكامل) في الأدب واللغة والأخبار.

وقد نص في كتابه هذا على (مسائل ابن الأزرق)، وقصة نشأتها بتفصيل، ومساءلة ابن الأزرق، ومعه نجدة الحروري، ونفر من الخوارج، لابن عباس، واستماع ابن عباس في هذه الجلسة لقصيدة عمر بن أبي ربيعة الرائية، وحفظ ابن عباس لها وإنشادها

(184) انظر كتابه (فضائل القرآن ومعالمه وآدابه 173/2-175) بدراستي وتحقيقي.

من حفظه في الحال ... ثم ساق المبرد طائفة يسيرة من تلك المسائل، وكفى بالمبرد شاهداً وناقلا ..[185].

3 – أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، أحد نبغاء أواسط القرن الثالث الهجري، ولم يعرف – بالتحديد– تاريخ وفاته. نصّ هو أيضا على قدوم نافع بن الأزرق إلى ابن عباس، وسؤاله عن القرآن، ومخاطبة ابن عباس له بقوله :

«يا نافع ؛ القرآن كلام الله عز وجل، خاطب به العرب [بلفظها] على لسان أفصحها ؛ فمن زعم أن في القرآن غير العربية فقد افترى؛ قال الله تعالى : ﴿قرآنا عربيا غير ذي عوج﴾»[186].

ثم عقد القرشي فصلا بعنوان (في القرآن مثل ما في كلام العرب)، أورد فيه كلمات وآيات كثيرة، وذكر لكل واحدة منها شواهد مناسبة لها من الشعر العربي، ومن ضمن تلك الشواهدلاحظت شواهد توجد عندنا في (مسائل ابن الأزرق)[187].

4 – الإمام الطبري محمد بن جرير (المتوفى سنة 310 هـ) شيخ المفسرين، وشيخ المؤرخين الذي انتهت إليه روايات التفسير بالمأثور، فجمعها، وفحصهاونقدها متْناً وسنداً، وقارن الأقوال، ورجح بعضها على بعض، واحتكم في جميع تحليلاته إلى صحة اللغة، والشواهد الشعرية، فأصبح تفسيرهُ زاخراً بها.

وقد ذكر مجموعة من (مسائل ابن الأزرق)، ونص على صاحبها في مواضع من تفسيره، لا يرى في ذلك غضاضة، وإن كان هو من أهل السنة، وتفسيره أيضا على وجهة نظر أهل السنة، بينما ابن الأزرق معدود في أهل البدع والأهواء والضلالات، لأن نشر العلم

(185) انظر الكامل بشرح المرصفي / المجلد 4 ج 7/154-166.
(186) جمهرة أشعار العرب 2/1. والآية من سورة الزمر 28.
(187) انظر جمهرة أشعار العرب 3/1-24.

والتسامح المذهبي يقضيان بوجوب إيجاد التواصل والحوار، مهما اختلفت الآراء والمذاهب ...

5 – الإمام ابن الأنباري محمد بن القاسم بن محمد أبو بكر، المولود في الأنبار (على الفرات) سنة 271 هـ والمتوفى ببغداد سنة 328 هـ كان من أعلم أهل زمانه بالأدب واللغة، ومن أكثر الناس حفظا للشعر وللأخبار، كان يحفظ ثلاثمائة ألف بيت شاهد في القرآن، وله مؤلفات قيمة، منها في ميدان القراءات ؛ كتابه الشهير (إيضاح الوقف والابتداء)[188].

وقد رأيته ذكر في هذا الكتاب قصة نشأة (مسائل ابن الأزرق) بتفصيل، ونقل أخبارا عن ابن عباس، وعن الصحابة عموما حول لغة العرب وشرفها، وفضل تعلمها، وتفسير القرآن، فيما يتعلق منه بالجانب اللغوي، والاستشهاد عليه بالشعر، في مقدمة مهمة لكتابه، ثم ساق خبر مقدم ابن الأزرق إلى ابن عباس، وما كان من مساءلته عن هذه المسائل التي ساق منها – فيما أحصيت – خمسين مسألة[189].

6 – الإمام الطستي أبو الحسين عبد الصمد بن عليّ بن مكرم الطستي البغدادي (المتوفى سنة 346 هـ عن ثمانين سنة). قال ابن العماد الحنبلي : روى عن أبي بكر بن أبي الدنيا وأقرانه، وله جزء معروف[190].

أقول : المراد بهذا الجزء المشار إليه هو جزء حديثي بمكتبة الظاهرية/مجموع 80، إضافة إلى «مسائل الطستي»، أي (مسائل ابن الأزرق) التي رواها وجمعها الطستي رحمه الله. وهي أوسع ما

(188) طبع في جزأين كبيرين، ضمن مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق 1390 هـ /1971م.

(189) انظر ج 1/61-99.

(190) انظر شذرات الذهب 373/2. وهو ممن فات ذكره الزركلي في (الأعلام).

جُمع من (مسائل ابن الأزرق)، بالنسبة لبقية الرواة الآخرين، فبلغ عددها عنده حوالي ثلاثمائة مسألة.

7 – الإمام الطبراني : أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي، من كبار المحدثين، أصله من طبرية بالشام، ولد بعكّا سنة 260 هـ، ورحل كثيراً في طلب العلم والتحصيل، وتوفي بأصبهان سنة 360 هـ.

له ثلاثة معاجم في الحديث : الصغير، والكبير، والأوسط، مع مؤلفات أخرى، وقد نص بدوره أيضا في (المعجم الكبير) على مسائل ابن الأزرق، وذكر منها طائفة مهمة بلغت إحدى وثلاثين مسألة[191].

8 – الإمام الهيثمي نور الدين علي بن أبي بكر (المتوفى سنة 807هـ نقل هذه المسائل عن الطبراني، وذكرها في كتابه (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد) في جزأين منه، ومحّص أسانيد الرواية، وقد جاء في آخر المسائل قوله : «رواه الطبراني، وفيه جويبر، وهو ضعيف»[192].

9 – الإمام الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله المصري الشافعي، المولود بالقاهرة سنة 745 هـ وتوفي ودفن بالقرافة الصغرى سنة 794 هـ. من مؤلفاته القيمة كتاب (البرهان في علوم القرآن) أشار في الجزء الأول منه في (النوع الثامن عشر : معرفة غريب القرآن) إلى هذا الموضوع، ونص فيه كذلك على وجوب معرفة لغة العرب، وأقوال الصحاب والصدر الأول في ذلك، ومنهم ابن عباس الذي يقول: «إذا سألتموني عن غريب اللغة فالتمسوه في الشعر ؛ فإن الشعر ديوان العرب»[193]، ثم ساق مسألة ﴿ الليل وما وسق ﴾[194].

(191) مخطوط (المعجم الكبير) للطبراني في مكتبة جامعة الدول العربية بالقاهرة، رقم 489، ثم طبع بمصر في 25 مجلداً و(مسائل ابن الأزرق توجد منه في ج 10/304-312).

(192) انظر ج 6/303-310 و9/278-284.

(193) انظر البرهان 1/292-293.

(194) الانشقاق 17.

ونص كذلك على «مسائل ابن الأزرق» باسمها، قائلا : «ومسائل نافع له عن مواضع من القرآن، واستشهاد ابن عباس في كل جواب ببَيْتٍ ذكرها الأنباري في كتاب «الوقف والابتداء» بإسناده ...»[195].

10 – الإمام السيوطي نادرة الزمان، ودائرة معارف كل عصر وأوان، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي بن أبي بكر بن محمد الخضيري، الإمام الحافظ المؤرخ الأديب، بلغت مؤلفاته حوالي 600 كتاب في كل ضروب الفكر والمعرفة، ولد في القاهرة سنة 849 هـ، ونشأ يتيما، وهمته القعساء دفعته إلى بلوغ مرتبة العظماء، الذين بيضوا وجه التاريخ، ورفعوا رأس أمتهم عاليا. وتوفي بالقاهرة أيضا سنة 911 هـ.

من مؤلفات السيوطي : (الإتقان في علوم القرآن)، و(الدر المنثور في التفسير بالمأثور)، وقد أورد في كل منهما كثيرا من (مسائل ابن الأزرق)، غير أنها مجتمعة في (الإتقان)[196]، وموزعة على أجزاء (الدر المنثور) ؛ فبلغ عددها في (الإتقان) مائة وتسعين مسألة وفي الدر المنثور ما يزيد على مائتي مسألة.

وسأتناول الحديث في الفصل القادم إن شاء الله عن دراسة المسائل، ومدى ما بلغه جهد الدارسين لها في عصرنا الحاضر.

دراسة مسائل ابن الأزرق

وإذا كانت (مسائل ابن الأزرق) قد عرفت عبر الأعصر الماضية عمليات الرواية والجمع، والتدوين، ولم تتجاوزها، فإن العصر الحاضر قد عرف مجهودات طيبة بذلها علماء في خدمة هذه المسائل، ودراستها، كل حسب نظرته لأبعادها المعجمية، أو اللغوية، أو الأدبية، أو التفسيرية.

---

(195) البرهان 1/293-294.

(196) انظرها في (الإتقان 2/55-88).

وكان رائد الميدان – فيما أعلم– هو محمد فؤاد عبد الباقي، خادم الكتاب والسنة، المعروف بتحقيقاته العلمية، ومعجمياته الدقيقة، وخبراته الواسعة في هذا المجال التي تغني شهرتها عن ذكرها، وإحصائها.

ومن بين معاجمه (معجم غريب القرآن) الذي استخرجه من صحيح الإمام البخاري، ورتبه على حروف المعجم، وألحق بآخره (مسائل نافع بن الأزرق) ؛ فقد جاء في آخر المعجم، ما يلي : «هذا آخر «معجم غريب القرآن». ونُقفّي من بعده بمسائل نافع بن الأزرق لابن عباس، لتشابه موضوعها بموضوعه»[197].

ونص على أنه اعتمد في روايته لهذه المسائل على (الإتقان) للسيوطي، مبتدئا بالتمهيد المعروف عن ظروف نشأة تلك المسائل، وتحدث أيضا عن صيغة السؤال والجواب المتبعين من بداية المسائل إلى نهايتها في الحوار بين ابن الأزرق وابن عباس ...

ثم وضح محمد فؤاد عبد الباقي منهجه الذي سيتبعه في ترتيب تلك المسائل، وهو المنهج المعجمي المرتب على الحروف، وذلك بعد رد الكلمة القرآنية إلى أصلها اللغوي الاشتقاقي، على عكس ترتيبها عند السيوطي، الذي يعد جمعا، وليس بترتيب ؛ فهو ليس على ترتيب القرآن في المصحف، ولا على ترتيب السور، ولا على ترتيب المعاجم، ويظهر أنه كان – في الغالب – جمعا لما كان مدونا، فتم نسخه وتسجيله كما هو، مع بعض التقديم والتأخير، إذا قارناه بمخطوطة مسائل الطستي، أو مخطوطات (مسائل ابن الأزرق).

وعمل محمد فؤاد عبد الباقي كان مركزا مبنيا على الاختصار ؛ حيث يكتفى بذكر معنى الكلمة في الآية، ثم يسوق لها شاهدها الشعري، قال :

(197) انظر صفحة 233.

«وقد آثرت ترتيب هذه المسائل على حسب أوائل حروف المادة التي منها اللفظة الغريبة، واكتفيت بذكر معناها مع الشاهد الشعري»[198].

وقد اعتمد في عمله على ثلاث نسخ من (الإتقان) طبعة الأزهر 1318 هـ، والطبعة الموسوية 1287هـ، ومخطوطة بتاريخ 990 هـ[199].

وذكر بعض الصعوبات التي واجهته نتيجة التصحيف والتحريف في تلك النسخ كلها، حتى يضيع محل الشاهد في بعض الشواهد، مما جعله يضاعف الجهد والتنقيب ؛ قال، متحدثا عن تلك النسخ :

«وكلها مشحونة بالخطأ والمسخ والتشويه والتحريف والتصحيف، وقد يورد البيت وليس فيه محل الشاهد. وهذا ما جعلني أنقر عن كل شاهد تنقيرا، وأمعن في الفحص عنه ما وسعه جهدي و﴿ لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها ﴾»[200].

ثم بين منهجه فيما توصل إلى معرفته من تلك الشواهد، ومنهجه فيما لم يتوصل إليه منها، متحليا بتواضع العلماء، معترفا بالقصور البشري عن إدراك ما لا يطاق، قال :

«فما هديت إليه أثبته صحيحا مع ذكر موضع تخريجه، وما ضاق عنه ذرعي تركته بنصّه وأتبعته بهذه النجمة(*) عسى أن يتسهل لغيري ما تصعب عليّ، وينْجلي له ما أحاط به من ظلمات بعضها فوق بعض، وفوق كل ذي علم عليم»[201].

---

(198) معجم غريب القرآن 236.

(199) نفسه.

(200) نفسه صفحة 237 والآية من سورة الطلاق 7.

(201) نفسهَ.

أقـول : وقد أحصيت الشواهد ذوات النجوم عند عبد الباقي رحمه الله، أي التي لم يتوصل إلى معرفتها، فبلغ عددها ثمانين شاهداً.

وقد خدمت هذه المسائل أيضا ودرستها من الجانب اللغوي المحض أستاذتنا الدكتورة عائشة عبد الرحمن، وذلك في آخر كتابها : «الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق» حيث جعلتها ملحقة بآخر «الإعجاز البياني للقرآن»[202].

وبذلك أصبح الكتاب بشقيه يؤلف دراسة قرآنية ذات محورين :

الأول : يتعلق ببلاغة القرآن وإعجازه، وهو جانب مهم استغرق الإمام الزمخشري حياته من أجل إبراز معالمه.

الثـاني : يتعلق بلغة القرآن، وفحص سر الكلمة فيه، وما مدى التطابق بينها، وبين اللفظ التفسيري الذي استعمله ابن عباس، ثم ما مدى تطابقهما معا مع المفردة في البيت (الشاهد الشعري).

وهو مجهود كبير يحتاج لمواصلة الجهد، والصبر والتأني، والمقارنة فيما بين المعاجم اللغوية، زيادة على عرض الآيات القرآنية ذوات النسق الواحد، واستخلاص ما بينها من فوارق وظواهر في عرض مختلف السياقات القرآنية ...

ومنهج الدكتورة عائشة في خدمة هذه المسائل لخصته بنفسها قائلة : «وتتجلى محاولتي فيها، غير مسبوقة فيما أعلم، إلى النظر فيها مسألة مسألة، لنرى ما إذا كانت الكلمة القرآنية يرادفها ما فسرها به ابن عباس، أو أن تفسيره إنما هو على وجه الشرح والتقريب الذي لا سبيل إلى سواه في تفسير كلمات الكتاب المعجز»[203].

---

(202) انظر صفحة 267-507 (نهاية الكتاب).

(203) انظر صفحة 276.

ومن حيث ترتيبها للمسائل، فقد أبقت على ترتيب السيوطي في (الاتقان) ورقّمت المسائل بأرقام مسلسلة ...

أما الدكتور إبراهيم السامرائي، فقد كان أيضا ممن اعتنى بهذه المسائل وحققها، وطبعها باسم «سؤالات نافع بن الأزرق»، ولا نعرف كيفية عمله في الكتاب، ولا مقدار الجهد الذي بذله، ولا الجانب الذي ركز عليه لأن كتابه لم يتيسر لنا الحصول عليه، رغم استمرار البحث عنه لفترة طويلة[204].

ثم يأتي دور الشيخ أبي تراب الظاهري، فيؤلف كتابه (شواهد القرآن)، ويخصص الجزء الأول منه لـ«مسائل ابن الأزرق».

فيذكر أولا السند المعروف لرواية هذه المسائل عند السيوطي، ثم بدأ بالمسائل كما هي مرتبة في الإتقان للسيوطي، ولكني رأيت تأثير محمد فؤاد عبد الباقي واضحا فيما يتعلق بتخريج بعض الشواهد عند أبي تراب.

ومنهج أبي تراب يتخلص في كونه يورد المسألة من مسائل ابن الأزرق بتمامها، سؤالا، وجواباً، وشاهدا، ثم يناقش التفسير اللغوي، ويسيح سياحة مركزة موفقة، مع معاجم اللغة على اختلافها، والحق يقال : إنه فارس ميدان اللغة، والخبير المطلع على أسرارها، ودقائقها ...

غير أننا نراه في أغلبية شواهد (مسائل ابن الأزرق) لا يخص لها ولو كلمة واحدة، من حيث أسماء الشعراء، وأوزان بحورهم، ومناقشة معاني تلك الشواهد، أو دراستها، أو نقدها، أو التطرق إلى ما يمكن أن يقال حولها من صحة، أو انتحال أو غير ذلك.

فإننا وإن كنا نُسَرُّ بالبسط اللغوي الذي يقدمه، فإننا نشعر

(204) طبع كتاب «سؤالات نافع بن الأزرق» في بغداد سنة 1968م.

وهو ينتقل بنا حيث يضع ثلاث نجمات هكذا (***) من مسألة إلى أخرى، نشعر بأن المسألة والشاهد كأنه لم يقل عنهما شيئا، في حين يستمر في عرض الشواهد الأخرى الإضافية المتعلقة بموضوعه اللغوي.

وبتعبير آخر، وبكلمة موجزة، فإن المجهود الذي أعطى لمضمون عنوان جزئه الأول، وهو (مسائل ابن الأزرق) لا يعد شيئا مذكورا بالنسبة لحجم الجزء الكبير، وبالنسبة لمئات الشواهد من غير مسائل ابن الأزرق التي اشتمل عليها الكتاب.

وعلى كل فإن الشيخ أبا تراب لغوي فاحص دقيق في إدراكه لأسرار اللغة، والخوض في عبابها الزاخر، وإنما أقول : كان الأولى أن يقف وقفة أطول عند كل مسألة من هذه المسائل فيدرسها بهذا التعمق المعهود فيه.

وأخيرا يأتي دور الدكتور عبد الرحمن عميرة الذي نشر (مسائل الإمام الطستي). وقال : إنه **رتب أصولها، وحقّق نصوصها،** وأخرجها للناس تحت عنوان مُغْرٍ، وهو «من مكتبة التراث»!!

وأنا أقول، إحقاقا للحق، وإزهاقاً للباطل، وإنصافا لحرمة التراث، مع إشفاقي على حال الدكتور عميرة، وحال أمثاله ممن يفسدون العلم، ويشوهون التراث، والتراث رسالة فكرية، وأمانة علمية يقدرها العلماء المخلصون حق قدرها، من أمثال عبد السلام هارون، وأحمد محمد شاكر ومحمد أبي الفضل إبراهيم، والسيد أحمد صقر، وعبد العزيز الميمني الراجكوتي، وعبد الفتاح أبي غدة، وغيرهم من العلماء المخلصين حقا للتراث الإسلامي والذين سكنوا قلوبنا وعقولنا أحياء وأمواتا، وتأثرنا بمنهجهم القويم، وإخلاصهم العظيم، وترسمنا خطاهم بحول الله.

أقول : ليس هناك أصول، ولا ترتيب للأصول، ولا نصوص، ولا تحقيق للنصوص !! وإنما هناك مهزلة فاضحة، وكارثة علمية خطيرة، من البداية للنهاية !!

وكَشْفُ قضية الدكتور عميرة بتفاصيلها تحتاج إلى مجلدات، وقد حاولت أن أعطي خلال دراستي التطبيقية لمسائل ابن الأزرق كثيرا من نماذج أخطائه العلمية التي لا تغتفر، وأذكر بعضها فقط -هنا- للتدليل على مدى الاستهانة بحرمة العلم عنده !

أولا : سماها (مسائل الإمام الطستي)، ولم يقدم كلمة واحدة تتضمن التعريف بهذا الإمام الجليل الذي يبيع فكره للناس !!

ثانيا : أين أصول الكتاب التي يتحدث عنها ويقول : إنه رتّبها، وكيف هو هذا الترتيب العجيب الذي يتحدث عنه ؟ إننا سنرى عكس ما ادعاه !

ثالثا : مسائل الطستي تشتمل - حسبما في المخطوطة الأصلية بدار الكتب المصرية - على حوالي 280 مسألة. **أنا أحصيت ما جمعه الدكتور عميرة فناق 400 مسألة !** فمن أين له بهذا العدد الضخم ؟! والحَكَم بينه وبين قرائه (الأبرياء) أن يطلعهم على مخطوطة الطستي إن كان حقا يكنُّ لهم إخلاصا وتقديراً واحتراماً.

رابعا : إذا كان يتعامل - حقا - مع مخطوطة الطستي فما علاقة رواية ابن الأنباري -مثلا- في (الوقف والابتداء) بما في صلب ما يعتبره من (مسائل الطستي)؟![205]، وما علاقة (مسائل الطستي) بعبد بن حميد؟ يقول الدكتور عميرة : «وأخرج عبد بن حميد...»[206].

وما علاقة (مسائل الطستي) أيضا بالطبراني؟ يقول الدكتور : «وأخرج الطبراني عن ابن عباس ...»[207].

---

(205) تكرر النقل عن ابن الأنباري في (الوقف والابتداء) من خلال (مسائل الطستي) فانظره !!

(206) انظر -مثلا- ج 90/1 وقد تكرر ذلك !

(207) انظر -مثلا- ج 77/1.

خامسا : -كيف ننسب للطستي عدة مسائل (هي موجودة عند الدكتور عميرة) على أنها من (مسائل ابن الأزرق)، ونستشهد على تلك المسائل بشواهد لشعراء ولدوا وعاشوا بعد ابن عباس وابن الأزرق بفترات زمانية ! في أشياء أخرى مخجلة تفوق الحصر يدرك خطأها طلاب المرحلة الابتدائية أو الإعدادية ؟!!

سادسا – أما عن التحقيق والتدقيق فحدّث ولا حرج ؛ فأغلب المسائل، وأغلب الشواهد لم يقل فيها كلمة واحدة، وإذا ما قال شيئا، فكل الصيد في جوف الفَرَا !![208].

وإذا حصلت منه فلتة، وحاول التعريف بشاعر، فإنه يضرب هذا الإسم بذاك ويستخرج منه العجائب والغرائب ! وكمثال واحد على ذلك نأخذ ما جاء في (ج 36/1) عندما ساق مسألة (خالدون) التي استدل عليها ابن عباس بقول عدي بن زيد :

فهل من خالد إما هلكنـــا وهل بالموت يا للناس عـــار

فالمعروف عند العلماء أن عدي بن زيد هذا من أقدم شعراء الجاهلية، من نصارى «العبَاد» بالحيرة، وله ديوان شعر، فيه هذا الشاهد ... وقد درست هذا الشاهد في موضعه، وترجمت لعدي بن زيد بما فيه الكفاية.

أما الدكتور «عميرة» فقال في ترجمته : «هو عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع : شاعر كبير من أهل دمشق، يكنى أبا داود، كان معاصرا لجرير، مهاجيا له، مقدما عند بني أمية، مداحا لهم، خاصا بالوليد بن عبد الملك ... مات في دمشق عام 95 هـ» !! وهذا غَيْضٌ من فَيْض!![209].

---

(208) «الفَرَا» الحمار الوحشي، وجمعه فِرَاء. وانظر معنى المثل في كتب الأمثال.

(209) أي قليل من كثير، وانظر مختلف كتب الأمثال.

منهج عملي في خدمة المسائل

قبل البدء في العمل قمت بجمع هذه المسائل من مخطوطات، ومطبوعات ؛ فكان من جملة المخطوطات :

1 – مخطوطة (مسائل الطستي) الموجودة بدار الكتب المصرية.

2 – مخطوطة (مسائل ابن الأزرق)، في مجموعتين بالمكتبة الظاهرية بدمشق.

3 – مخطوطة (مسائل ابن الأزرق) بالمكتبة الوطنية ببرلين، وهي مأخوذة من (الإتقان) للسيوطي حرفيا، مع بعض التصرف في العبارات المختصرة، ومع نقص عما في الإتقان بـ (42) مسألة في سياق واحد، وبعضها متفرقة، ووقع التقديم والتأخير في مسألة واحدة، بالنسبة لترتيبها مع ما في الإتقان.

4 – مخطوطة (مسائل ابن الأزرق) التي رواها الطبراني في (معجمه الكبير) بمكتبة جامعة الدول العربية.

وكان من جملة المطبوعات المشتملة على (مسائل ابن الأزرق) :

1 – الكامل للمبرد محمد بن يزيد.

2 – إيضاح الوقف والابتداء، لابن الأنباري.

3 – المعجم الكبير للطبراني، طبعة القاهرة.

4 – البرهان في علوم القرآن، للزركشي.

5 – الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي.

6 – الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي.

7 – سفينة الراغب ودفينة المطالب، لمحمد الراغب الوزير، ذكر فيه مسائل ابن الأزرق من صفحة 432-438 نقلها من الاتقان للسيوطي .. وأثبت 49 مسألة بترتيب الإتقان، وآخر شاهد ذكره هو :

ومنا الذي لا قى بسيف محمـد فحسٌ به الأعداء عرض العساكر

ثم قال بعد هذا، مبديا رأيه في سبب اقتصاره على ذكر بعض المسائل :

«وهذه المسائل المعزوَّة لنافع بن الأزرق تبلغ نصف كراس، كلها على هذه الوتيرة، وأكثرها مما لا يليق بالسؤال والجواب[210]، ولذلك اكتفينا بهذا القدر. ومن هذه المسائل ما ذكره المبرد في (الكامل) في أثناء قصة الخوارج»[211].

وبعد جمع المخطوطات والمطبوعات، وقراءتها قراءة فاحصة متأنية، لأكثر من عقدين من الزمن قمت بالمقارنة الدقيقة – جهد الطاقة– فيما بينها كلها، وضبطت الروايات المختلفة، واستعنت في جميع مراحل البحث والتنقيب والدراسة بكثير من المصادر والمراجع المهمة التي استقيت منها صحة المادة، وصواب الرواية، وسداد الرأي، فكان كل ذلك والحمد لله خير زاد تزودت به في هذا الطريق الصعب الشاق، المر الحلو في آن واحد.

واختلف أصحاب تلك المصادر والمراجع في عدد المسائل ؛ إذ كان منهم المقل الذي اكتفى بالمسألة، أو المسألتين، أو ما دون العشرة، وكان منهم من ذكر إحدى وثلاثين مسألة، وهو الطبراني في (المعجم الكبير)، ومنهم من ذكر (50)مسألة، وهو ابن الأنباري في (الوقف والابتداء)، ومنهم من ذكر (190) مسألة، وهو السيوطي في (الإتقان)، وبلغ ما عنده في (الدر المنثور) (284) مسألة فيما أحصيته ونقلته، وتجاوزت مخطوطة الطستي هذا العدد بقليل.

---

(210) **أقـول** : هذا الكلام، لم يقله أحد غيره ! بل كلها صالحة للسؤال والجواب، وإنما يجب التعامل معها بالنقد البنَّاء.

(211) انظر سفينة الراغب صفحة 438 وما بعدها.

فبلغ مجموع عدد المسائل، باعتبار تنوع الشواهد، أو تعددها، للمسألة الواحدة حوالي (330) مسألة.

وكانت صياغة السؤال والجواب في تلك المسائل تختلف من رواية لأخرى ؛ فمنها في سؤال ابن الأزرق : (أخبرني عن قول الله تعالى كذا وكذا ...)، و(أرأيت قول الله تعالى كذا ...)؟، و(هل تعرف العرب ذلك)؟، و(هل كانت العرب تعرف ذلك قبل أن ينزل الكتاب على محمد ﷺ؟).

ومنها في جواب ابن عباس : «أما سمعت قول الشاعر ..»، «أما سمعت الشاعر وهو يقول ...»، «ألم تسمع ما قال الشاعر ...»، أو فلان (الشاعر باسمه)..

أما عن ترتيبها فقد ارتأيت بعد أن تجمع لدي هذا الكمُّ الهائل من (مسائل ابن الأزرق)، وما جمع كل واحد من أولئك الرواة يختلف عن الآخر في طريقة جمعه، ارتأيت أن أمزج فيما بينها جميعا، وأرتبها على ترتيب حروف المعجم، حسب طريقة محمد فؤاد عبد الباقي.

وألزمت نفسي بتوثيق كل مسألة أذكرها ؛ إذ التوثيق هو أساس صحة العمل، وخاصة في ميدان التراث، وكل نتائج البحث متوقفة عليه، وتابعة له، سلبا وإيجابا.

والجانب اللغوي في هذه المسائل يعد المحور الأساسي الذي تدور حوله (أي التفسير اللغوي للقرآن الكريم) ؛ وخلاصة الأمر أن ابن الأزرق استشكلت عليه ألفاظ، فطلب من ابن عباس أن يفسرها، ويستدل على تفسيره اللغوي بما يوافق كلام العرب، وبما عرفوه في أشعارهم جاهليها وإسلاميها ..

وما رأينا قط ابن الأزرق يسأل عن غير اللغة في هذه المسائل،

من أولها إلى آخرها، وإن كانت له أسئلة أخرى كثيرة لابن عباس منتشرة في كتب التفسير والمذاهب والتاريخ تتعلق بالفقه، والتوحيد وغيرهما ..

وتتبعت في معالجة كل مسألة المراحل الآتية :

1 – أُورد نص المسألة بتمامها ؛ سؤالا، وجوابا، وشاهدا، بعد أن أثبت أصل الكلمة القرآنية (أي الحروف المكونة لها)، ثم أضع بين هلالين الكلمة القرآنية.

2 – تخريج المسألة ؛ حيث أذكر من أخرجها، مبتدئا بالمخطوطات، ثم بالمطبوعات وبالمصادر القديمة، ثم بالمراجع ذات الأهمية.

3 – أُتبع ذلك بتخريج الآية، أو الآيات التي وردت فيها المفردة المسؤول عنها، محددا سورتها ورقمها. وقد أحيل في بعض الأحيان على المعجم المفهرس لألفاظ القرآن إذا تعددت ألفاظ المادة.

4 – القراءات في الكلمة والآية، إذا كانت هناك قراءات غير قراءتنا. وذلك لتبيُّن وجه قراءة ابن عباس في الآية، لارتباطها بالتفسير الذي ذكره، وقد نجد لابن عباس عدة قراءات في الآية الواحدة، وذلك ما يحملنا على التأمل والبحث، وتخريج تلك القراءات، حتى نرى منها ما يوافق تفسيره للآية ...

5 – تفسير ابن عباس للمسألة، ومقارنته بتفاسيره وأقواله الأخرى في التفسير المنسوب إليه (تنوير المقباس من تفسير ابن عباس)، ثم في التفسير المنقول عنه أيضا في المصادر والمراجع المعتمدة، مثل ما ورد في صحيح البخاري، وما نقله الطبري، وابن حجر، والعيني، والشوكاني، وأصحاب التفاسير اللغوية الأولى كالفراء في (معاني القرآن)، وأبي عبيدة معمر بن المثنى في (مجاز

القرآن)، والأخفش (الأوسط) سعيد بن مسعدة في (معاني القرآن)، وأبي إسحاق الزجاج في (إعراب القرآن ومعانيه)، وأبي جعفر النحاس في (إعراب القرآن)، وسواهم من أهل العلم والتحقيق...

ولطالما عقدت مقارنات بين وجه تفسيره في المسائل، والوجه المروي عنه في غيرها، مستعرضا في ذلك أيضا أقوال جمهرة المفسرين، واللغويين في تحديد دلالة الكلمة قصد الوصول إلى الوجه الذي ترتاح له النفس، ويطمئن له القلب مما قصده ابن عباس رضي الله عنهما.

وقد تكون الكلمة المسؤول عنها غير عربية الأصل، أو هي بلغة بعض القبائل العربية ؛ ففي الحالة الأولى نبحث عن صحتها، وتخريجها في المعربات، وفي الحالة الثانية، نبحث عما ورد في القرآن من لغات القبائل، وذلك عن طريق المعاجم وكتب هذا الشأن وبذلك يتضح الصواب في دراسة المسألة ...

6 – شاهد المسألة، وأبحثه من عدة جوانب :

أ – نسبته ؛ قد يَرِدُ البيت مرسلا، فأقول بالبحث عن إيجاد إسناده، وغالبا ما أوفق في ذلك، وقد يبقى على إرساله لعدم معرفة العلماء بقائله، لسبب من الأسباب، قد يكون الوضع، وقد يكون غيره..

وقد يرد البيت مسندا إلى قائله، فتصح النسبة عندنا، وكفى الله المومنين القتال، وقد ينسب البيت، ولكننا نكتشف أن نسبته غير صحيحة، وذلك باعتمادنا ضوابط ومقاييس نقدية، منها ما يرجع للزمان، أو للمكان، ومنها ما يرجع للغة المستعملة عند الشاعر، ومنها الموضوع الذي يطرقه ؛ فقد يكون فيه من الإيحاءات والدلالات ما يضع أيدينا على مفتاح الحل المستعصي ..

وكذلك قد يرد الشاهد ونسبته متنازعة متدافعة بين أكثر من شاعر، كما في مسألة (الوسيلة) -مثلا- ؛ فقد نسب لعنترة، ونسب لخزز بن لَوْذَان السدوسي، ونسب لغيرهما، كما بينت ذلك في قسم التطبيق على الشواهد ...

ب - بحـــره : وقفت عند بحور هذه الشواهد بعناية وتأمل وتمحيص، ونسبت كل شاهد لبحره من البداية للنهاية، وأصلحت بعض الشواهد التي كانت مكسرة، وبينت وجه الصواب فيها، عن طريق الوزن والتفعلة والبحر العروضي، وعن طريق النقل والرواية إذا وجدا.

ولاحظت أن أكثر الأبحر المستعملة هي الطويل، والبسيط، والكامل، والوافر والمنسرح، والخفيف، والرمل، والمتقارب، على تفاوت فيما بينها.

ووجدت في بعض الشواهد عملية التلفيق بين صدر بيت، وعجز بيت آخر ذكرتها في مواضعها، وأرجعت البيوت الملفّقة إلى أصلها.

ج - رواياتـه : بذلت مجهودا متواصلا لاستقصاء روايات كل بيت، والبحث عمَّا في كل رواية من أوجه الخطأ والصواب، بناء على المصادر والمراجع المعتمدة، كدواوين الشعراء : أصحاب الشواهد، ثم المجموعات الشعرية الأولى الموثقة، كالأصمعيات، والمفضليات، والجمهرات، وديوان الهذليين، وكتب الأمالي، وكتب النوادر، وكتب الحماسات، مثل حماسة أبي تمام، وحماسة البحتري، والحماسة الشجرية، وغيرها.

كما عولت كثيرا على أمهات المعاجم وكتب اللغة، والبلدان، ولا أحتاج لذكرها ..

وفي مقدمة كتب اللغة أيضا : كتب غريب القرآن، وغريب

الحديث، كما استأنست بروايات المفسرين للشواهد التي يعرضونها، ولا ينسبونها في الغالب، أو لا يتحرى أغلبهم في ذكرنسبة قائلها.

كما عولت كثيرا على كتب النقد، كالعمدة، لابن رشيق، ونقد الشعر لقدامة بن جعفر، وعيار الشعر، لابن طباطبا العلوي، وخزانة الأدب للبغدادي، والصناعتين، لأبي هلال العسكري وغير ذلك ...

وعولت كثيرا على كتب التصحيف والتحريف، مثل تصحيح التصحيف وتحرير التحريف، للصَّفدي، وشرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف، لأبي أحمد العسكري، وأخبار المصحفين له أيضا، وتصحيفات المحدثين لأبي هلال العسكري وسوى ذلك ...

ولم يعزب عن بالي - وأنا أناقش ألفاظ وروايات كل شاهد على حدة - أن احتمال التحريف في الشواهد وارد غير مستبعد، قام به من استجلب البيت وأدخل عليه تغييرات تكون مطابقة لصحة الاستشهاد عنده !

ورأيت نماذج من ذلك في هذه المسألة، منها على سبيل المثال شاهد (تُبسل) لزهير، وهو من قصيدته القافية المشهورة، وروايته في الديوان، وأوثق المصادر الأدبية والنقدية واللغوية هي :

وفارقتك برهن لا فكاك له ... يوم الوداع فأمسى الرهن قد غلقا

وفي بعض الروايات «وأمسى» بالواو، و«رهْنُها» بدل «الرهن» وكلها صحيحة وزنا ومعنى.

أما رواية عجز الشاهد في (مسائل ابن الأزرق) فهي هكذا : (يوم الوداع فقلبي مبسل غلقا *)!

وهكذا نلاحظ أنه تم استبدال «فُأمسى الرهن قد» بـ «فقلبي مبسل». وقد أدليت في دراستي لهذه المسألة بحجج أخرى تؤكد وجهة نظري إن شاء الله.

ويشاء الله أن يتكرر نموذج آخر مع زهير أيضا في شاهد (كل بنان)، حيث استشهد به في (مسائل ابن الأزرق) على «بنان» برواية:

لدى أسد شاكي البنان مقذّف له لبد أظفاره لم تقلّم

ورواية الديوان وجمهرة المصادر والمراجع فيه : «شاكي السلاح» بدل «البنان» ! وقد أوسعت المسألة بحثا في موضعها أيضا.

وهناك شواهد كثيرة أخرى من هذا القبيل، تتبعتها - باهتمام- أثناء خدمتي للمسائل. ويصبح الاستشهاد بالبيت غير ذي جدوى، مع صحة روايات الأصول..

ودرست أيضا أغراض تلك الشواهد الشعرية، فوجدتها مختلفة متشعبة، فيها : الحرب والسلم، والحلم، والشدة، والفخر، والمدح، والهجاء، والرثاء، والكرم، والشجاعة، والرحلة والراحلة، والعفو، والانتقام، والخمر، والسكارى، والندامى، والبيع والشراء، والحزم، والجود، والعقوق، واللوم، والعتاب، والفرح، والغضب، والألم ...

وأغلب موضوعاتها تتعلق بالوصف الحسّيّ ؛ وصف السماء، الشمس، القمر، النجوم، السحاب، المطر، الرياح، الليل، النهار، الصواعق، الوابل، الصخور، الإعصار، الجبال، الرحال، التلال، البرد، النور، الظلام، كسوف الشمس، وكذلك وصف الحيوانات : الخيل، الجمال، الكلاب، الناقة، الصقور، العصافير، النَّعم، النحل والدَّبْر، البَكر، الأسد، الشبل الرأل، السقب، الطير ..

وكذلك الأصوات، مثل الخُوار، الحَفيف، الهمس، الأصداء، الهمهمة، المُكاء، التصدية، الزفير، البكاء، الهَرهرة ...

ومن مواضيعها أيضا : الألوان، كالبياض، والسواد، والأصفر، والفاقع، والأحمر، والأشهب ...

وكذلك وصف الحروب وأدواتها، من الأهبة والاستعداد، والكر، والفر، والمراوغة، والسيوف والرماح، والسهام ... مع ذكر الأسلاب والغنائم والأسرى ...

واشتملت على ذكر الأشجار والنباتات ... كالحنظل، والزهر، والبصل، والفوم، والثوم ...

ومنها ما تضمن التأمل في الحياة، والموت، وجهنم، والجزاء، والتوحيد، والبعث، والإيمان، وغير ذلك مما يستوجبه التأمل العميق، والأخذ من التعاليم السماوية ...

أما عن أعصر الشعراء أصحاب هذه الشواهد، فأكثرهم جاهلي (على اختلاف الأعصر الجاهلية)، ومنهم المخضرمون، وهم جماعة مهمة، ومنهم الإسلاميون، وهم قلة.

د – مدى المطابقة بين معنى الكلمة القرآنية، ومعنى الكلمة في البيت الشعري، وهي مسألة أساسية لفهم مدى التفاعل بين لغات العرب التي كانوا يألفون معانيها، ويستعملونها في حياتهم العملية، وبين لغة القران التي استوعبت تلك اللغة، وزادت عليها ألفاظا ومعاني جديدة، لها مفهوم خاص في المصطلح الإسلامي، وذاك ما عالجته في مواضعه بقدر الجهد والاستطاعة.

خاتمة :

إن اختياري لموضوع شواهد التفسير عند ابن عباس في مسائل ابن الأزرق، لم يكن وليد الصدفة، وإنما عن شغف بالموضوع، واقتناع بأنه يمثل جانبا مهما من تراث التفسير اللغوي للقرآن الكريم في الأمة الإسلامية، وخاصة عندما تمازج فيه الجانب الأدبي (الشعر) بالجانب اللغوي الأصيل..

ولقد كان الموضوع حقا جذابا مغريا بكل جوانبه ومراحله، وأبعاده. كيف لا وهو من النتاج الفكري لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما، حبر الأمة وترجمان القرآن، وأبو التفسير، وسر بركة الدعاء النبوي : «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل».

وإذا كان كل بحث يهدف إلى مقاصد وغايات، ويتوخى صاحبه أن ينشر الحقيقة، ويزيح الستار عن جوانب ظلت محتجبة عن المدارك والعقول، فيأتي بالشيء الجديد، أو يصحح المفاهيم عن القديم المعروف المألوف، أو يثير مشكلة علمية تحتاج إلى التفاعل معها والانفعال بها، حتى يتمخض البحث حولها عن إثراء جديد للفكر الإنساني، مما يكسبه قوة ومناعة والوقوف في وجه الزوابع الفكرية التي تثار هنا وهناك على مر التاريخ البشري ..

إذا كان ذلك هو غاية كل باحث، ومقصد كل طالب، فما هو الجديد الذي يقدمه هذا البحث، وماهي أهم النتائج المستخلصة منه ؟

يمكن لي أن أقول، وبكل تواضع، مع اعترافي بما قد يتعرض له كل بشر من قصور وخطأ ونسيان : إن البحث قد كشف مجاهل كثيرة، وأتى بفوائد جديدة جمة يمكن إجمالها فيما يلي :

- فتح آفاقا جديدة على حياة ابن عباس، وفكره، وعلمه، والأدوار الفعالة التي قام بها على جميع الأصعدة : العلمية، والسياسية، والعسكرية، وغيرها، مستندا في ذلك إلى جمع النصوص المتعلقة به، ومقارنتها، واستنتاجاتي الشخصية لها ..

- قَيَّم موازين الروابط والعلاقات التي كانت تربط بين ابن عباس وغيره، من أقطاب العلم، والفكر، والسياسية، كعلاقته -مثلا- بمعاوية بن أبي سفيان، وعبد الله بن الزبير، والخوارج، وخاصة منهم الأزارقة، والنجدات، وكيف تعامل مع الجميع بحزم، وعزم، ولطف ورفق ولين ...

- واستخلص البحث أيضا القيم الأخلاقية العظمى لابن عباس، حبر الأمة وترجمان القرآن، كالحلم، والصَّبر، وسعة الصدر، وتحمل الأذى، كحاله -وهو أعمى- مع عبد الله بن الزبير الذي أمر بإحراق داره عليه، فخرج مهاجرا للطائف، ولم يوافق أهل الكوفة على قتله والانتقام منه.

- ووضّح البحث الظروف والملابسات الزمانية والمكانية لنشأة (مسائل ابن الأزرق)، وعرَّف بها، وبمن نقلها من الرواة والدارسين..

- ورد الأمور إلى نصابها في فكرة انتحال هذه المسائل التي قال بها مستشرقون، وبعض العرب وذلك بإقامة الأدلة على صحة أصل هذه المسائل بما تناقله الرواة الثقاة المجمع على حفظهم وضبطهم وإتقانهم من أخبارها، وبعض نماذجها ..

- كما أقام البحث الحجج الدامغة على انتحال بعض هذه المسائل، وتكثيرها عبر الزمن إلى حد لا يصدق، كما هو الشأن عند بعض الدارسين المعاصرين !

وقد اعتمدت على ضوابط لاكتشاف ما يرجح أنه وضع في بعض الشواهد، زيادة على ما رجحت صحته من الروايات، منها :

-نوع اللغة التي تضمنها الشاهد ؛ الذي قد يكون جاهليا، ولكننا نتأكد من أن ألفاظه إسلامية، كما هو الشأن - مثلا- في مسألة (حدائق).

- نوع المضمون والمحتوى للبيت ؛ فاللفظ الجاهلي، والعقل الجاهلي، والمعنى العام للشعر الجاهلي، هو غير الشعر الإسلامي، وبالمقارنة والتأمل نرى أن بعض هذه الشواهد كأنَّ أصحابها كانوا يستحضرون المعنى القرآني، وهم ينظمون أشعارهم !!

- تاريخ حياة الشعراء قد يكشف عن فكرة الانتحال في الأثر الأدبي، كما في حالة أحد شاهدي مسألة (ركزا) لذي الرمة. وذو الرمة ولد سنة 72 هـ وتوفي سنة 117 هـ. فكيف يعقل أن يستشهد بشعره ضمن (مسائل ابن الأزرق)، مع العلم أن وفاة ابن الأزرق كانت سنة 65 هـ ووفاة ابن عباس (ض) سنة 68 هـ ؟!

- وكان من نتائج البحث أيضا أنه كان أول دراسة شاملة معمقة لشواهد التفسير عند ابن عباس في مسائل ابن الأزرق، من حيث :

توثيق الرواية، وتصحيح النسبة، والتشريح العروضي واللغوي في محتوى البيت، وإبراز وجه التطابق فيما بين الكلمة القرآنية، والكلمة الشعرية، ولا يعني هذا أني أدعى الحسم في كل شيء، معاذ الله ؛ فهناك جوانب كثيرة تحتاج إلى متابعة البحث والتنقيب والدراسة.

ولا أنسى أن أذكّر بأنني بذلت من قوتي وعصارة فكري المستطاع، وفوق المستطاع، وذلك لاتساع الموضوع، وتشعب

نواحيه ؛ لأنه يشمل التفسير، والقراءات، واللغة، والنحو، والأدب، والتاريخ، والعروض والنقد وغير ذلك، ويستدعي البحث والاطلاع على فنون وعلوم كثيرة، وكشف ما تضمنته مجلدات.

ويمكن لمس هذه الحقيقة بالرجوع لأي مسألة، وأي شاهد ؛ فقد بذلت فيه من الجهد والعناء مالا يقدره حق قدره، ولا ينزله منزلته إلا العلماء الباحثون، والجهابذة المحققون.

وأخيرا أرجو أن أكون قد وفقت فيما هدفت إليه، من خدمة كتاب الله عز وجل الذي ﴿لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾، وأن يكون ما قطعت من عمري في جمع هذه المسائل وخدمتها، وتمحيصها -وسط خضم من الأهوال المتراكمة، والأحداث المتلاحقة التي تحاصر الباحث، وتضغط عليه بكَلْكَلِها، ولا تجعله يقوى في أكثر الأحيان على الصبر والصمود والعطَاء - أرجو أن يكون كل ذلك خير هدية أقدمها لأبناء العروبة والإسلام، وخير زاد فكري يضاف للمكتبة العربية الإسلامية، ومعترفا بفضل من سبقني في معالجة هذا الموضوع المغري الجذاب بما فيه من جوانب مشرقة، وبما فيه أيضا من مظاهر التمنع التي تستوجب من كل باحث تجديد العزائم، واستنهاض الهمم، مستعيذا بالله من فتنة الدعوى وحب الظهور، متبرئا إليه من حولي وقوتي، مستشعراً عظم عطيته، وانفتاح أبواب رحمته ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾ صدق الله العظيم، والحمد لله رب العالمين.